
ساحر الكتب
د. حسين السيد
قربان بشري
إبداع



قُربان بَشري

د. حسين السيد



الكتـــــــاب: قربان بشري

المـــؤلــــــف: د. حسين السيد

تصميم الغــلاف: أحمد الصباغ

المراجعة اللغوية: إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيــداع: 2018 / 1239

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 194 - 6

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله



العنوان: 10 ش هدى شعراوي، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173

الموقع الالكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الالكتروني: info@ibda3-tp.com



قُربان بَشري

د. حسين السيد





الإهداء

وهل يكون في الحب اختيار؟

أحببتك قبل أن أراك .

وعشقتُ براءتك وأنت تمدين أناملك نحو السماء لتلمسيها

ريماس

أنت ضحكة من السحر لا تعرف الأُفُول



مقدمة

إذًا فهي القصة القصيرة هذه المرة!.

ولماذا لا أكتبها كثيرًا مثلما أكتب الروايات الطويلة؟

ربما لأنها فن صعب، وحتمًا لأنها تحتاج للكثير من الاختصار وأنا بطبعي أميل للثرثرة!

لكنني بالفعل من عشاقها فعلًا، وأعشق عوالمها المثيرة. لقد كانت محاولاتي الأولى في القصة القصيرة، فكتبت عشرات القصص القصيرة حيث احتفظت ببعضها لنفسي وأشعلت النار في البعض الآخر لأنني لم أحتمل رداءتها وتجرأت في أحيان قليلة فنشرت بعضها في دوريات صغيرة أو مجلات الحائط بالجامعة أو اشتركت بها في مسابقات المدراس الثانوية.

وبعد حين اتجهت للرواية الطويلة، لكن عشقي لكتابة القصة القصيرة لَم يفترْ تمامًا. في الواقع ومن وقت لآخر كانت هناك قصة ما تلحُّ عليّ لكتابتها فأفعل، وحين أنتهي منها كنت أضمُّها الي ملف كبير يحوي القصص الأخرى. لا أخفي سرًا أنني لم أفكر يومًا في نشرها، بل رأيت أن تظل تلك القصص ملكا لي وحدي، وللدائرة الصغيرة من المقربين من حولي.



لكن الكثيرين ممن قرؤوها ظلوا يُلحون عليّ، "عليك أن تنشرها"، فأحتجُّ عليهم أن قارئي اعتاد الروايات الضخمة التي تتجاوز مئات الصفحات، وربما لا يتقبل مني حكاية قصيرة؟

لكن الحجة المقابلة كانت أن ادَعَ الحكم للقارئ، ليقرأ ثم يحكم.

في النهاية اقتنعت وقررت أن أُضمّن بعضها في كتاب واحد، لكن سؤال آخر برز، ماذا أنشر؟ هل أنشر أحدث ما كتبت أم تلك القصص القديمة التي تؤرخ بداياتي؟

في النهاية مال قلبي للرأي الأخير، إذا فلتكن الحكايات الأولى ومحاولاتي الأولى في أدب الرعب،

ودعني أهمس في أذنك بسرٍّ صغير، لو نجحت الفكرة فحتمًا سيكون هناك المزيد من القصص القصيرة، لكن لو..

أنت حتمًا تدرك ما أقصده يا صديقي.

لكن لماذا الثرثرة والحكايات تنتظر أن ترى النور بعد أعوام من الظلام.

حسنا لنبدأ سويًّا..



لا أُحب الحيوانات



نجح هذا الكلب كثيرًا في أن يُثير جنوني، حتى صرتُ أشعر بالسِّقم حين يظهر أمامي بغتة، بلونه الأسود الكئيب، ونظراته الغريبة المُتوجسة، التي لا تنتمي أبدًا لعالم البهائم!

كان يكتفي في كل مرة يظهر فيها أمامي بأن يرمقني بعينيه الكريهتين بثبات، وكأنما هناك ما يريد أن يقوله! كان هذا يجلب الجنون لعقلي..

لم أعُد أحتمله هو أو نظراته الغريبة تلك، وأعلم أنه لو استمر في ملاحقتي هكذا طويلًا، فسوف أبحث عن حلٍّ ما يُنهي معاناتي معه..

لا يُراودني الخجل حين أعترف أنني لا أطيق الكلاب، ولا أي شيء آخر من تلك الأشياء القذرة التي ندعوها الحيوانات.. وأستطيع أن أجزم أن هذا كان رأيي مذ تعلمت كيف أرتدي سروالي بنفسي..

فلا أتذكر أنني اقتنيت يومًا حيوانًا أليفًا، أو طائرًا مُلوَّنًا يزقزق، أو حتى سمكة سخيفة تلهو في صندوق زجاجي ممتلئ بالماء حتى تختنق.. ولا أفهم أبدًا أين المتعة في اقتناء مثل تلك الأشياء بهدف التسلية أو غيرها.. إنها كائناتٌ بَغيضة لا تكف لحظة عن طلب الطعام والشراب، ثم بعثرة فضلاتها القذرة على الآثاث والسجاد..



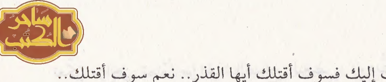
صدقوني! إن من يقتنى مثل تلك الدمى البغيضة لهو رجلٌ أحمقٌ بلا عقل، ولا يستحق من الرجل المحترم إلا الإزدراء والتوبيخ..

إن من عاش طويلًا مثلي، حتى جاوز الثمانين من عمره لهو أهل لأن يتحدث بالحكمة التي لا تستحق غير الإتِّباع والاحترام..

ربما يتشكك البعض في كلامي، متعللًا بمرضي وقد فقدت ذاكرتي، فصرت لا أذكر الكثير عن حياتي السابقة.. لكني لا أظن هذا.. قد تضيع الذكريات، لكن الحكمة لا تذهب!

قد يصيبك المرض فتنسى أشياء كنت تُحبها أو أشخاصًا كنت تحترمهم.. لكنني متأكد من أنك حتى لو فقدت ذاكرتك تمامًا ونسيت كل شيء قد حدث لك، فسوف يظلُّ هناك مكان ما في عقلك يذكر جيدًا تلك الأشياء التي كرهتها طوال حياتك..

خرجت اليوم من باب البيت في الصباح الباكر لأتريَّض قليلًا، وكان الكلب هناك في الحديقة في انتظاري، بذيلِه السخيف الذي لا يكفُّ لحظة عن الاهتزاز.. هنا شعرت بالاستياء وتُعكر مزاجي، وحسبت هذا من سُوء الطالع في هذا اليوم، فصببت عليه لعناتي، ولوَّحت بذراعي نحوه مهددًا كي يبتعد.. إلا أنه اكتفى بأن تراجع للخلف قليلًا، ثم مرة أخرى قبع على ساقية الخلفتين وراح من بعيد يتطلع نحوي بإصرار.. لم أتمالك أعصابي من هذا الاستفزاز المَقيت وصرخت فيه:



-لو وصلت إليك فسوف أقتلك أيها القذر.. نعم سوف أقتلك.. أقسم بالعذراء والمسيح أنني سوف أفعل!

لم يبدُ عليه أنه يُبالى.. وانتبهت في تلك اللحظة للضحكات العابثة التي جاءت من أعلى السور الخشبيّ الذي يفصل بيتي عن بيت جيراننا من عائلة "بلدوين"، فالتفتُّ برأسي نحو السور..

كان ابنهما الصغير المُزعِج "بوبي" هو مصدر تلك الضحكات، وحين أدرك أنني أراقبه، حرك إصبعه في وجهي في إشارةٍ بذيئةٍ وهو يصيح عاليًا:

-أيها العجوز "تريوني".. أنت مجنون مجنون.. أنت رجل برأس سحلية.

كم أكره هذا الفتى!.. وكم أتمنى لو يسمح القانون يومًا للعجائز بدقّ أعناق الصغار الملاعين، وسلخ جلودهم، ثم تعليق رءوسهم اللعينة فوق أغصان الشجر!!!

نَهَضتُ من مقعدي وهرْولت نحوه بخطوات حاولت أن أجعلها سريعة وقد التقطت حجرًا صغيرًا من الحديقة لألقيه نحوه.. لكنه، -ويا للشيطان!- وقبل أن أفعل، كان قد جرى نحو بيته وضحكاته مازالت تتردَّد في الفضاء، وهو يهتف بلا توقف:

-مجنون.. مجنون.. مجنون!!



تعكَّرَ مزاجي تمامًا من هذا الصباح البغيض، ووددتُّ لو أنفث غضبي في أحد ما.. ونبح الكلب حينها كأنما يقول لي.. "أنا مازلت هنا".. التفتُّ إليه، والحجر ما يزال بيدي يبحث عن هدف ما، فألقيته نحوه..

كانت ضربةً موفقة للغاية.. فقد أصاب الحجر رأسه؛ فتفجرت منها الدماء على الفور.. وراح الكلب يعْوي بلا انقطاع وهو يُهرول بقوائمه الأربع مبتعدًا..

وقتها شعرت بشيءٍ من الرضا.. وعدتُّ للمنزل وأنا أرى أنه لن يعود مرة أخرى لمُضايقتي.. سيكون غبيًّا بحقٍّ لو فعل.

***

"ماذا هناك يا حبيبي.. ولماذا كنت تصرخ؟"

كانت هذه هي زوجتي "إليانا".. كانت تقف أمام المطبخ وقد أمسكت بيدها السكين الذي تعد به الافطار.. فقلتُ برضا:

-إنه ذلك الكلب اللعين مرة أخرى.. لكنني اليوم أدميت رأسه هذه المرة، سيُفكر ألف مرة المرة القادمة قبل أن يُضايق "تريوني" العجوز.

-أخبرتك أن تدعه وشأنه.. ربما كانت فكرة حمقاء دفعته لأن يتودد إليك.. وربما يبحثُ عن مأوى أو بيت.



أشَحْتُ بيدي غير مصدق ما تقوله وأنا أهتفُ مستنكرًا:

–ويظن ذلك الأبلة أن بيتي من الممكن أن يكون مأواه.. هذا جنون.. إن "تريوني" العجوز هو آخر من قد يفعل شيئًا مريعًا كهذا.. يا له من أحمق حقًّا لو اعتقد أن هذا ممكنًا ولا في يوم القيامة!

هزَّت زوجتي كتفيها، قبل أن تعود مرة أخرى إلى المطبخ وصاحَتْ بصوتٍ عالٍ كي أسمعها:

–سيكون الإفطار جاهزًا بعد قليل، لا تخرج يا حبيبي قبل أن تتناوله.

جلست أمام التلفاز.. كانت نشرة الثامنة صباحًا، تابعتها للحظات بنصف عينٍ وغير انتباه قبل أن أشعر بالملل.. وبلا جدوى، رحت أنبش عقلي محاولاً استعادة أيّ ذكرى قديمة عايشتها.. لا أدري لماذا تبخّرت الذكريات من عقلي؛ فلم أعد أذكر أيّ شيء قد مضى.. بل وفشلت في محاولة استعادة ما حدث لي بالأمس.. كان آخر ما يُمكنني تذكّره هو ما عايشته في الساعات القليلة الأخيرة.. لكن ذاكرتي بعد ذلك مجرد صفحة بيضاء لا يشوبها عَكَار.

كان من حُسن حظي أن زوجتي "إليانا" بجواري.. ولا أعلم كيف كنتُ لأحيا لو لم تكن موجودة.. لقد كنت حَسَنَ الحظّ فعلا بزواجي من امرأة مثلها.. إنها امرأة نادرة الوجود بحق.. كما أنها

تحبني كما عرف القدماء معنى الحب.. إنني حقًا لمحظوظٌ بها!

وصلني صوتها مناديًا من الداخل.. يبدو أن الإفطار قد أُعد.. نهضت بتثاقل نحو المطبخ.. وجلست هناك أمام الطاولة الخشبية الصغيرة التي نتناول عليها طعامنا.. كان هناك البيض المخفوق والزبد والخبز المخمر مع القهوة.. قلت لها وأنا أتناول قطعة من الزبد في لقمة صغيرة:

-أخبريني كيف فقدتِ الذاكرة؟

تنهدت واجابت وابتسامة خفيفة تظهر على وجهها:

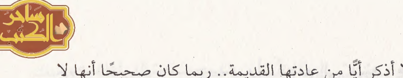
-إنها الشيخوخة يا صغيري.. قال الأطباء إن هذا يحدث أحيانًا.. أظن أنه مرضٌ يدعونه ب الزهايمر أو شيء مشابه.. لكنك ستعود يومًا ما لتتذكر.. لا تقلق!

لا أدرى لماذا أشعر أنني سمعت مثل هذا الكلام كثيرًا.. لكن لا أذكر متى كان هذا.. لا بد أنني نسيت.. لاحظت أنها لا تشاركني الإفطار، فقلت لها وأنا أصبُّ بعض القهوة في فنجاني:

-ألن تأكلي؟..

ابتسمت وهى تدفع نحوى طبق الزبد، وقالت:

-تعلم أنني لا أتناول الإفطار أبدًا.. هذا من عاداتي القديمة التي أحافظ عليها.



لكنني لا أذكر أيًا من عادتها القديمة.. ربما كان صحيحًا أنها لا تتناول الإفطار أبدًا كما تقول.. وربما كان هذا أحد الأشياء التي نسيتها..

***

أقضي وقت الظهيرة في تلك الأيام الدافئة من أغسطس على كرسيّ خشبيّ في الحديقة.. تملك حرارة الشمس تأثيرًا سحريًا وشافيًا لعظامي التي شاخت.. وتعرف أشعتها الدافئة كيف تُذيب الدماء المتكلسة في العروق..

صدقوني في هذا.. إن شمس أغسطس المُلتهبة لكنزٌ حقيقيّ لمن يعلم!

كنتُ بالحديقة كالعادة أرمق الأفق بخواءٍ محاولاً بلا جدوى التفكير في شيء ما.. لكن لا فكرة واحدة تلتصق بعقلي أكثر من لحظات معدودة قبل أن تتلاشى ويختطفها العدم..

وفجأة لمحت الكلب قادمًا من بعيد بخطواتٍ وئيدة.. شعرت بالدم يتصاعد في رأسي من الغيظ.. ألمْ أضربه في الصباح؟.. لماذا عَادَ إذًا؟..

رحتُ أُراقبه بحنقٍ، وهو يقترب، وذيلة السخيف لا يكفّ عن الحركة بصورة تنجح دومًا في إثارة مشاعري وضيْقي.. توقف غير بعيد وعوى بصوت خافتٍ قبل أن تتلاقى عينانا..



ورغمًا عني ارتجفَ جسدي وأنا أتطلع إلى عينيْه.. هل صرتُ أهذى أم أن ما أراه حقيقيًّا.. كانت عيناه تبكيان وتذرفان الكثير من الدموع.. رُحْت أراقبه بذهول وأنا لا أُصدق عيني..

كلبٌ يبكي؟!!!

ونبشت عقلي محاولاً التذكُّر.. هل تبكي الحيوانات مثلما نفعل؟.. لا أعلم الإجابة الآن.. ربما كانت تفعل.. من يدري؟!!

لكن ما أراه ببصري الآن يمنحني الإجابة.. هناك كلبٌ يقبع أمامي على قوائمه الخلفية ويبكي..

رُحْتُ أراقبه حتى شعرت بالملل.. وهتفت وأنا أُلوح بكفي نحوه بحركةٍ مُنذرة تطالبه أن يبتعد:

-أخبرتُك من قبل أن تبتعد.. إياك أن تظن أني سأسمح لك أن تحيا في بيتي كيْ تلوثه ببوْلك وروْثك العفن.. اطْرد تلك الفكرة الحمقاء عن عقلك الصغير، وابتعد أيها الأحمق وإلا ضربتك.

بدا أنه فهم تهْديدي.. فقد نهض وبدا يتحرك مبتعدًا.. لكنه من حينٍ لآخر كان يلتفت نحوي ويرمُقني بنظراتٍ غريبة حتى اختفى.. ومن خلفي تصاعد صوتٌ أكرهه.. كان ذلك الطفل البغيض المدعو "بوبي".. لقد عاد مرة أخرى ليستفزّني:

-هل تعلم أنك رجلٌ بغيضٌ أيها العجوز المجنون.. أنت يا زوج



الساحرة شخصٌ كريهٌ ومجنون.. ستهوي روحك أنت وزوجتك الساحرة في الجحيم، وستأكل الكلاب أحشائكم ومؤخراتكم الممتلئة..

ومرة أخرى شعرت بالغيظ والدماء الحانقة تفُورُ في رأسي فالتقطت حجرًا صغيرًا من الحديقة لأضربه به.. لكنه كان مستعدًّا للهرب ككل مرة، واختفى من فوق السور قبل أن ألقي الحجر نحوه.. أحسسْت بالغيظ فصرخْت من القهر!

وخرجَتْ زوجتي من الباب.. كانت ترتدي المريلة المنزلية.. رأت الحجر الذي أحمله فهتفتْ وهي تتلفَّت في المكان:

-لماذا تصرخ هكذا يا صغيري.. هل هو الكلب مرة أخرى؟

ألقيْت الحجر بحنقٍ وهتفتُ بسخطٍ وضيقٍ حقيقيّ:

-إنه ذلك الطفل اللعين "بوبي".. لقد ظل يقول إنني زوج الساحرة، وإنني سأذهب للجحيم، هل تصدقين؟.. اللعين الذي لا يُجيد ارتداء سرواله يُهددني بالجحيم!

شعرتُ أن ملامحها قد تصلبت اللحظة.. إلا أنها استعادت ابتسامتها المُريحة على الفور، وربتت على رأسي بحنوٍّ وغمغمت:

-إنه مجرد طفل، وبالتأكيد لا يقصد ما يقوله.. دعْك منه وأخبرني.. ألنْ تتناول الغذاء؟



لم أكن أرغب في الطعام بعد الآن.. لقد نجح ذلك الأحمق الصغير في إفقادي شهيتي، إلا أن نظرات زوجتي اللائمة جعلتني أقول مستسلمًا:

-حسنًا! سوف أتناول الطعام.. هذا من أجلك فقط.

وجلسنا على المائدة.. كان هناك بعض اللحم المشوي والمكرونة وسلطة الكرنب.. ورحت أتناول الطعام بلا رغبة حقيقية.. لكنه كان شهيًا كالعادة.. لاحظت أن زوجتي لا تشاركني الطعام.. قلت لها وأنا امضغ قطعةً من اللحم:

-لماذا لا تشاركينني الغداء؟!

ابتسمت وهي ترمقني بحبٍّ وأجابت:

-تعلم أنني لا أتناول الغداء أبدًا، طالما تناولت الإفطار يا صغيري.. أرى أنك نسيت أننا تناولنا الإفطار سويًّا؟!

لكنني لا أتذكر هذا.. ربما كان ما تقوله صحيحًا، وربما نسيت عادتها مع الأشياء الكثيرة التي نسيتها.. لكن هذا لا يمنعُني من الاعتراف أنها طاهية ماهرة بالفعل.

***

لا أُحب أفلام الرعب.. إنها مجرد هُراء لا يصلح إلا لإخافة الصغار والجبناء والتافهين.. لكن رجلًا بالغًا مثلي، لا ينبغي له



أن يخاف إلا من الموت أو الشيطان.. لكنني أرى أن الشيطان قد هجر الأرض منذُ زمن بعيد.. إنه يعني بشئونه الخاصة، وهي أثمن من المُكُوث على الأرض لدفعنا للشر!!

سمعتُ من قبل -لكنى الآن لا أذكر متى كان ذلك- أن الشيطان قد سأم كل شيء، فقرر أن يهرب إلى مكان بعيد.. ربما كان هذا صحيحًا، لكن هذه الأمور لا تُعرف أبدًا حقيقتُها.

كان هناك فيلم رعب يُذاع الآن.. أمسكت بالريموت لأبدل القناة لكن شيئًا ما جذب انتباهي.. كان الفيلم يتحدث عن قطة مُخيفة تطارد عجوزًا كسيحًا.. كانت القطة مُخيفة.. وكان من الواضح أنها ما تسبَّب في مقتل أخته من قبل.. كان الشخص المقعد يُؤمن أنها تطارده الآن كي تظفر بروحه.. لهذا استأجر قاتلاً محترفًا للتخلص منها..

رُحتُ أراقب المُطاردات التي تدورُ بين القطة الملعونة والقاتل.. جَالَ في ذهني ذلك الكلب الأسود الذي يُطاردني.. أيكونُ شريرًا مثل هذا القط الذي أراه الآن على الشاشة.. لكن المطاردة قد انتهت إلى شيءٍ بشع.. لقد نجح القطّ في اقتناص القاتل، قبل أن يقتل الشيخ المُقعَد بعد ذلك..

لم أتحمَّل ما أراه فأغلقت التلفاز بفزع، وأنا أتخيّل أن هذا قد يحدث لي.. رُحْتُ أرى بخيالي الكلبَ الأسود وهو يُلاحقني،



قبل أن يقفز نحو عنقي ويقْضُمُه بأنيابه الحادة..

كنت أرى نفسي وأنا أُجاهد بجنون لالتقاط أنفاسي.. لكن الكلب الشرير قد قطع ترقُوتي، فرُحتُ أشعر بالاختناق.. أرى جسدي ينتفض بشدة قبل أن يتوقف تمامًا عن الحركة.. أرى الكلب يعوي وهو يضعُ قدميه الأماميتان على صدري قبل أن يرفع قدمه الخلفية ويبُول فوقي مُعلنًا انتصاره عليّ قائلا:

-لقد انتصرتُ عليك أخيرًا أيها العجوز "تريوني".. لقد أدميت رأسي لكنني في النهاية انتصرت عليك وظفرتُ بروحك.

شعرتُ بالغضب، وأنا أحاول طرد مثل هذه الأوهام عن عقلي.. هذا لن يكون، والكلب لن يستطيع أن يفعل بي شيء كهذا، لأنني ببساطة قررت أن أقتله!!

ربما كانت روح شيطان ملعونة ما تُسيطر عليه، وربما رغبت تلك الروح الشيطانية في الخلاص مني!

ولذا وقع على عاتقي التفكير في حيلةٍ ما كيْ أقتله..

وهنا أتاني صوتُ زوجتي من داخل المطبخ..

-العشاء يا حبيبي في انتظارك، أسرعْ قبل أن يبرد:

-أنا قادمٌ يا حبيبتي..

اتجهت ببطءٍ إلى المطبخ.. وعلى المائدة الصغيرة كان هناك



كوبٌ من اللبن وشطيرةٌ من الجبن.. جلستُ والتقطتُّ شطيرة الجبن ورُحْتُ أمضغُها ببطء.. كانت لذيذة.. لاحظت أن زوجتي لا تشاركني الطعام.. فقلت لها:

-أين عشاؤك؟

وكانت هناك تلك الابتسامة الساحرة التي لا تُفارق وجهها، وهى تُجيب:

-ألا تعلم يا حبيبي أنني لا أتناول العشاء أبدًا.. إنني أكتفي بتناول الغذاء وقد تناولته معك بالفعل.. يبدو أنك قد نسيت مرة أخرى!

كان هذا صحيحًا.. لقد نسيتُ.. لكن الشطيرة كانت لذيذة بالفعل.

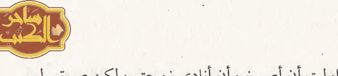
***

أَلَمْ أقل لكم إن هذا الكلب يُثير جُنوني.. لقد كان اللعينُ معي في الحلم.. وكأنما لا يكفيه أن يُلاحقني في اليقظة، فإذا به يزورُني في الحلم أيضًا..

كنتُ في مكانٍ ما لا أعرفه.. هل هي خرائب بيوت متهدمة؟..

ربما!!

وشعرت بالفزع لأنني كنت بمفردي في المكان، وقد صارت قدماي ثقيلتين كالحجر.. شعرت بعشرات العيون التي تلاحقني في الظلام، وهي تنتظر أن أسقُط أو أتعثّر، كي تُهاجمني



وتنهشُني.. حاولت أن أصرخ وأن أنادي زوجتي، لكن صوتي لم يغادر حنجرتي.. حاولت أن أتحرك؛ لكن هذا بدا وكأنني أحاول تحريك أهرامات من الصخر، وليس قدماي..

راحت العيون الشريرة تقترب مني أكثر وأكثر مُستغلةً أني لم أعد قادرًا على الهرب، وأنني لا أراها بفعْل ذلك الظلام الرهيب الذي يُغطي كل شيءٍ حولي..

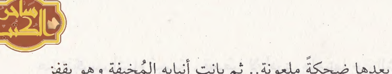
هنا اجتاحني ألمٌ شديدٌ في صدري وكأنما هناك من يعتصره بقبضةٍ من جليد، حتى ضاقت أنفاسي..

ومن الظلام برزت ممصاتٌ مخيفةٌ راحت تلتصق بكل مكان في جسدي، ومعها صار الألم في صدري أكثر عنفًا، وقلبي يقْرع الضلوع في عنف.. شعرت أنه الموت فاستسلمت له، قبل أن تبتعد تلك الأشياء عن جسدي بغتة.. هنا صار الظلام أقل كثافة، وبدأ الألم في صدري في الانحسار..

ومن بعيدٍ رأيته.. كان يقترب بتُؤدة مني، حتى صار على بُعْد خطواتٍ مني.. لم أشعر حينها بالخوف.. بل كان هناك الغضب.. كيف يجرُؤ هذا القذِر على مُراودتي في أحلامي..

بدأ ينبح للحظات قبل أن يفتح فمه.. هذه المرَّة كنتُ أفهم ما يقوله لأنه راح يتكلم كالبشر:

-أنت لي.. لقد أبعدتهم لأنني أنا من سوف يلتهمك.



وأطلق بعدها ضحكةً ملعونة.. ثم بانت أنيابه المُخيفة وهو يقفز نحوي ويُهاجمني..

فى اللحظة التالية كنت جالسًا على فراشي ألهثُ، والعرقُ الباردُ يغمُرُني.. وظل قلبي يتواثبُ في قفصه الصدري لفترة طويلة، قبل أن يهدأ.. شعرتُ بالظمأ وفكرت أن أُوقظ "إليانا" زوجتي، التي ترقُد إلى جواري نائمةً في ثوب خفيف.. إلا أنني تراجعتُ وفضلتُ ألا أُزعجها. غـادرتُ الفراش، وذهبتُ بخطواتٍ مضطربةٍ واهنة نحو الثلاجة.

تناولتُ منها زجاجة ماء باردة.. وشربت منها بنَهَم.. وحين أعدتها لمكانها كان الكثير من توتري قد زال.

جلست على أحد المقاعد الوثيرة في حجرة المعيشة.. أشعلت التلفاز إلا أنني لم أعِ ما يدورُ به.. في الواقع كنتُ لا أزال أُفكر بحلمي.. وكنت أفكِّر بذلك الكلب الأسـود الـذي يُطاردني بإلحاحٍ..

هنا سطع في ذهني خاطرٌ مُرعبٌ.. أيكونُ ذلك الكلب هو الشيطان.. أعدتُّ التفكير في الأمر مرة أخرى.. في مطاردته الدائمة لي.. في عيونه التي رأيتها تبكي.. في لونه حالك السواد الذي يخلو من أيّ شعر أبيض..

أجل! ربما كان هذا محقًا.. إنه الشيطان نفسه بلا شك!



هنا تذكرت أشياء مُبهمة.. قصصًا لا أدري ماهيتها عن الشيطان الذي يظهر للمارة متخفيًا في صورة كلب أسود.. إذًا فهذا الشيطان يُطاردني في صورة كلب كي يُثير جنوني وهلعي، قبل أن يتنزع روحي من جسدي.. لكن ذلك الشرير لا يعلم أني ككاثوليكيّ مُخلص، لا أخشاه ولن أسمح له أن يظفر بروحي.. الرب وحده هو من سيفعل.

"عليك اللعنة الشيطان في جحيمك" قُلتُها لنفسي مشجعًا ثم عرفت ما عليّ أن أفعله.. سوف أقتل ذلك الكلب ولو كان هذا آخر عمل أقومُ به في حياتي!

هنا صدر نباح في الخارج.. كان هذا نباحه.. كنت أعلم ذلك.. إذًا فقد أرسله الربّ الآن إليّ لأنتقم منه..

إني قادمٌ إليك أيها الشيطان لأُريك أن "تريوني" العجوز لا يهابُك!

***

بالطبع كنت أدرك أنني مجرد عجوز ضعيف، ومن العسير أن أتغلب على هذا الكلب القويّ بمفردي لو واجهته في قتال مباشر.. إنه أقوى مني بالتأكيد، وحتما سوف يقتلني لو واجهته..

إذًا لا مفرّ من الخديعة..

ذهبت للمطبخ وفتحت المبرد.. كانت هناك بعض قطع اللحم.. جلبتُها ووضعتُها على المائدة.. ثم اتجهت إلى خزانة حفظ الأدوية

الصغيرة في الحمام.. كانت هناك حبوبي المنومة.. حملت العلبة البلاستيكية وأسرعت عائدًا إلى المطبخ..

مازلت أسمعه ينبح بالخارج.. ورحت أدعوا ألا يشعر بالملل فيبتعد عن المنزل قبل أن أنتهي من عملي..

أفرغتُ الحبوب في الخلاط وصببْت فوقها القليل من الماء، كي تذوب، ثم وضعت فوقها قطع اللحم. أشعلتُ بعدها الخلاط فتعالى الصوت المُزعج له للحظات حتى صار اللحم كالعجين، وقد تشرَّب بالكامل الحبوب المنومة تمامًا..

وضعتُ الخليط في طبق، واتجهتُ للخارج..

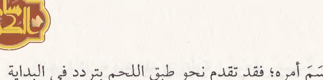
حين فتحت الباب كان هناك.. توقف عن النباح حين رآني.. وضعتُ الطبق على الأرض أمامه، وقلتُ وأنا أُشير للحم المفروم:

-هذا طعامٌ لو كنت جائعًا!

ربما لن يفهم معنى الكلام؛ لكنه بالتأكيد سيفهم أن هذا طعام.. تذكرت حاسة الشم القوية التي تتمتع بها للكلاب.. هل يدرك أنني وضعت له حبوبًا منومةً مع اللحم؟؟.. تطلَّع بحذر إلى الطبق وتحركت عيناه متنقلة بيني وبين طبق اللحم كأنما يفكر فيما عليه أن يفعله..

حاولت أن أُحفزه وقلت:

-إنه لحم مفرومٌ.. ألا تحبه؟..



بدا أنه قد حَسَمَ أمره؛ فقد تقدم نحو طبق اللحم بترددٍ في البداية قبل أن يعدُو نحوه مرة واحدة في جوع حقيقي.. راح يتناول اللحم في سرعة بينما مكثت مكاني أراقبه..

بدا أنه يستمتع باللحم، فقد أتى على كل ما في الطبق في دقائق قليلة.. رُحتُ أنظر إليه في صبر، وقد رقد بجوار الباب في طمأنينة وكأنما يعتقد أنني صرت صديقًا.

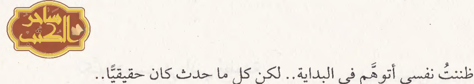
ظللت بمكاني حتى سقطت رأسه هي الأخرى بجواره.. انتظرت لدقيقة أو أكثر قبل أن أتحرك نحوه.. ركلتُهُ بقدمي برفق فلم يتحرك، ركلته مرة أخرى بعنف أكبر فلم يبدُ عليه أثر للألمٍ.. لقد تخدَّر تمامًا الان.. وكان عليّ أن أُسرع في تنفيذ المهمة.

عدتُّ للداخل نحو حجرة المكتب.. كانت هناك هراوة خشبية لا أدرى فيمَ كنتُ استعملها من قبل، لكنها تصلح للقتل..

عدتُّ للخارج وتقدمتُ نحو الكلب النائم.. رمقته بنظرة منتصرة قبل أن أرفع الهراوة وأهوي بها على راسه.. تفجر الدم منه إلا أنني لم أبالِ.

توالت الضربات الغاضبة على رأسه حتى تحطمت تمامًا.. شعرت حينها بالإعياء فتوقفتُ لألهث.. ثم عدتُّ لمقعدي وألقيت جسدي عليه وأنا أشعر بالفخر، وقد قضيت على الشيطان..

وبعد لحظات رأيت أشياء غريبةً تحدث..



ظننتُ نفسي أتوهَّم في البداية.. لكن كل ما حدث كان حقيقيًا..

لقد استطالت أطراف الكلب وذهب الفراء الأسود وحلت الأصابع مكان المخالب.. ثم تحول الرأس المُهشم إلى رأس آدميّ بينما استحال الجذع الحيوانيّ جسدًا بشري..

لقد تحول الكلب إلى بشريّ!!.. زحفتُ بأرجلٍ لينةٍ لا تقوى على حملي نحو الكلب لأراه عن قرب..

نعم! لقد تحول تمامًا.. لقد صار بشريًّا!!

هل يعنى هذا أنني قد قتلت إنسانًا؟..

شعرتُ بالرعب.. وهنا فوجئتُ بزوجتي تقف على الباب.. نقلتْ مقلتيها بيني وبين ذلك الجسد البشري الميت قبل أن تبتسم..

قلتُ لها في فزع:

-لقد كان الكلب.. لم أكن أعلم أنه إنسان!!

اتسعت ابتسامتها وقالت وهى تتجه نحوي دون أن تُفارق عيناها الجسد المقتول:

-لا عليك يا عزيزي.. لن يعلم أحدٌ بما حدث.. سأتولى أنا الأمر، فلا تقلق!

ثم أحاطتني بذراعيها بحنانٍ حقيقيّ فارتجفتُ بين يديها.

-لقد كان إنسانًا مسحورًا.. هل ترين.. لقد تحول لبشريّ؟



لكنَّها همست في أذني مُطمئنة:

-لقد كان سيئًا.. دومًا كان يُضايقك ويهزأ بك.. لقد حوَّلته من أجلك إلى كلب.. والآن سيصيرُ وجبتي القادمة.. كم أنت لطيف يا صغيري، لأنك ساعدتني في الحصول على وجبة أخرى طازجة!

ثم قبَّلتني على جبيني فشعرتُ بالرعب منها.. ما هذا الذي تتفوَّه به؟..

أبعدتْني عن صدرها، ويبدو أنها أدركت النظرة الفزعة التي تملأ وجهي.. فقالت وهي تمسح بيدها رأسي:

-لا داع لأن تخاف مني يا عزيزي.. لقد كنت دومًا موجودة من أجلك.. لكن هذا هو وقت نومك.. هيا لنصعد سويًّا إلى الفراش!

وجدتُّ نفسي أسيرُ معها نحو فراشنا، غطتني وهمست في أذني كلمات لا أتذكرها.. ثم شعرت بعيني تُفتشان عن النوم.. و... غفوت

***

أكره ذلك الطفل السخيف "بوبي".. اعتاد أن يُضايقني وأن يسخر مني كلما رآني. كما كان يستمتع بإلقاء الفضلات والقاذورات على حديقة بيتي.. لكنني حزنْت بالفعل حين رأيت الكثير من رجال الشرطة حول بيته في الصباح، وعلمت أنهم جاءوا ليحققوا



في واقعة اختفائه..

جاء إليّ محققٌ شابٌّ ذكيّ.. سألني إن كنت قد رأيت أي شيءٍ مريبٍ بالجوار.. فأخبرته بالنفي.. أسرعت زوجتي إليه لتخبره وهي تحتضنني بأنني أُعاني من فُقدان الذاكرة، وبانها لم تر ما يُريب هي الأخرى.. وحين انصرفوا، رأيتُ لأول مرة ذلك القط الأسود السّخيف..

أكره القطط وأكره جميع الحيوانات.. وخاصة حين تكون مُلحة مثل هذا القط الذي يُصر على ملاحقتي أينما أذهب.. لا أدرى كيف يقتنى رجلٌ عاقلٌ مثل هذه الكائنات السخيفة التي لا تكفّ عن طلب الطعام والشراب ثم القاء قاذورتها على السجاد والأثاث..

دعتني زوجتي للداخل فنسيتُ أمر القط السخيف الذي لا يكفّ عن المواء!

كنت آكل ولاحظت أن زوجتي لا تتناول الطعام معي.. سألتها فأجابت:

-تعلم أنني لا أتناول الإفطار يا عزيزي، هل نسيت مرة أخرى.

ربما كان هذا صحيحًا.. لقد نسيت بالفعل!

لكن لماذا لا يكفّ هذا القط عن المواء بالخارج؟

وربما كان عليّ القيام بشيء ما لو استمر في ملاحقتي هكذا!!



التاسعة مساءً



إنها التاسعة مساءً الآن..

نحن على الطريق الزراعي الواصل بين محافظة القليوبية والقاهرة.. على اليمين هناك ذلك المصرف الممتلئ دائما بالماء العطن، والذى يفصل الطريق عن الأراضي الزراعية التي تمتد خلفه حتى مد البصر.. وعلى الجانب الآخر هناك الطريق المقابل، والذي تلية ترعة الاسماعيلية..

هناك الظلام حالكٌ، والأضواء الشاحبة التي تبثُّها أعمدة الإضاءة من حين لآخر على جنبات الطريق والتي فشلت تمامًا في أن تبدو ذات قيمة حقيقية، فلم تبدو أكثر من بقع صغيرة من الضباب الملتصق بها.

ثم كانت هناك السيارة الجيب الحمراء والتي تسير على الطريق ببطء مُريب، وبداخلها ثلاثة أشباح لشباب أو لنقل صبية لن ترتاح لهم أبدًا.. راديو السيارة صاخبٌ لا يكف عن بثّ صراخ أحد ما يزعم أنه يغني.. والعجيب أن هذا الصراخ بدا وكأنه يطرب ركابها، فراحُوا يتمايلون باستمتاع مع الكلمات المنفّرة وهم يرددونها خلفه.

لكن أعينهم كانت في تحفز عيون ذئب وهي تترقب السيارات التي تظهر من حين لآخر بالجوار، أو كَعَيْنَا كلبٍ مسعورٍ يبحث عما



يفترسه..

كانوا لصوص سيارات!!.. وهي مهنة بزغ نجمها بشدة في تلك الأيام التي تلت الثورة.. فلا أمنَ كان هناك ليردع.. ولا سلطة للدولة قد تُخيف.. إنه العصر الذهبي للبلطجة والمجرمين!!.. وفي تلك الأيام صار المجد، كل المجد للبلطجة، ومن صار قادرًا على شراء وحمل سلاح ما..

ويقول «محمد شارون» الجالس بجوار ذلك الذي يقود السيارة بغضب موجهًا كلامه له:

-هدئ السرعة قليلاً يا أحمق... لسنا في سباق كي تجرى هكذا.

بالفعل وبضغطاتٍ خفيفةٍ على الفرامل هبطت سرعة السيارة كثيرًا. صارت سرعتها الآن لا تتجاوز الثلاثين كليو مترًا في الساعة..

ثم هتف "أيمن قمشة" وهو الصبي النحيل الذي يجلس في المقعد الخلفي، وهو يطلق سحابة جديدة من الدخان المُعبق برائحة الحشيش:

-سأكون أنا من يقود أول سيارةٍ نظفر بها اليوم!

رد عليه "علي كازوزة" الذي يقود السيارة وهو يهدئُ من سرعتها أكثر كي يعبر أحد المطبات على الطريق:

-المهم أن نجد سيارة نستولي عليها، ولتذهب بعدها بالسيارة إلى الجحيم أيها الاحمق لو شئت..

امتاز "علي كازوزة" ببنيةٍ ضخمة وملامح غليظة، ولون أسمر قاتم، مع شعر قصير خشن، يُعطيه منظرًا منفرًا للغاية ومخيفًا أيضًا.. كان في الثلاثين من عمره تقريبًا، وهو أكبر الثلاثة عمرًا.. دخل السجن أربع مرات قبل الثورة، وصار يؤمن أنه لن يعود إليه ثانية بعد الثورة، وقد انتهى عصر الشرطة للأبد..

الثاني كان "محمد شارون"، وكان عمره لا يتعدى العشرين عامًا.. طويل القامة بأنف كبير ووجه ممتلئ بالكثير من حب الشباب الذي صنع في وجهه الكثير من الحُفر والنّدبات على وجهه.. وكانت تلك النّدبات ما يُميزه.. بدأ طريق الجريمة بالتجارة في الأقراص المُخدرة، ثم أيقن أن السطو أكثر ربحًا فسلك هذا الطريق بلا تردد..

أما "أيمن قمشة" فكان أصغرهم عمرًا.. صبيٌّ لا يتجاوز السابعة عشر من عمره.. نحيفٌ كعود ثقاب.. يملك شاربًا قليل الشعر، لكنه احتفظ به كعلامة من علامات الرجولة المزعومة.. كما كان يمتلك ندبةً حديثةً على جانب وجهه الأيسر، صنعتها مطواة قرن غزالٍ في مشاجرة خاسرة، وتم خياطتها بطريقة سيئة، فتركت خطًّا داميًا أحمر يمتد من أسفل الأذن إلى قُرب الفم.. الغريب انه يفخر بهذه الندبة البشعة ظنًّا منه أنها تُخبر من يراه، أنه من مثيري الشغب؛ فيرهبه...

وبعد حين مرت سيارة مُسرعة بجوارهم.. تأملها الثلاثة بانتباه

وترقُّب.. كانت سيارة دايو لانوس يقودها شابٌّ يجاهد كي يظفر بسرعتها القصوى..

وغمغم "محمد شارون" وهو مازال يتأملها:

-ما رأيكم؟..

أجابه "علي كازوزة" بلا اكتراث:

-كلا، إنها متهالكة وقديمة، ولا تساوي عناء السطو عليها أو طلقات الرصاص التي سنطلقها عليها.. لننتظر حتى تظهر واحدة أخرى.

أشاحوا بوجوههم عنها، ومرة أخرى عادوا لمراقبة الطريق.. في نفس الوقت ازدادت سحب الدخان داخل السيارة، ومازال ذلك المطرب ذو الصوت الغليظ يُصر على الزعم أنه قادرٌ على الغناء، وقد انتقل إلى أغنية أخرى راح يعوي بكلماتها..

ومن بعيد لمع كشافان بيضاويان.. هل تكون تلك السيارة القادمة هي السيارة المُنتظرة؟.. انتبهوا لها وحبسوا أنفاسهم في ترقُّب..

هذه المرة كانت السيارة من طراز "اسكودا أوكتافيا" حديثة؛ يقودها كهلٌ في الخمسين من عمره.. شعروا بالحماس وقد راقتهم الغنيمة..

سمح لها "علي كازوزة" بتجاوزه؛ لتكون أمام أبصارهم ثم زاد من سرعته متعقبًا اياها..



ثم قال "علي" لهما وهو يخرج قناعه من جيبة:

-هيا ارتدوا الاقنعة واستعدوا..

ارتدى كل منهما قناعًا أسود غطى وَجْهَيْهما ولم يظهر من كل قناع غير فتحتين ضيقتين للعينين.. ثم تناول الاثنان بندقية آلية من جوارهما.. وقال "أيمن قمشة" بحماس وهو يهز سلاحه:

-تذكرا أنني من سيقود تلك السيارة.

تجاهلا الرد عليه وعيناهما مُعلقة على السيارة في إصرار.. وفي نفس الوقت زاد "علي قازوزة" من سرعة السيارة الجيب التي يقودها أكثر كي يلحق بها.. كان يعلم أن هناك مطب مرتفع على بعد خمسمائة متر.. وكان عليه أن يصله قبل تلك السيارة، وإلا اضطر للانتظار نحو 500 متر أخرى قبل أن يكون هناك مطبٌّ جديد.

وبعد لحظات صار بجوار السيارة، وقبل المطب بأقل من مائة متر زاد سرعته فجأة.. وقبل ان يصل إلى المطب مباشرة ضغط مكابح السيارة لتصدر نباحًا مفزعًا قبل أن يتوقف بها بعرض الطريق كي يغلق الطريق أمام الاسكودا..

بدا من الواضح أن قائد تلك السيارة أصابهُ الفزع من تلك الحركة المفاجئة؛ فضغط هو الآخر المكابح بقوة لتزحف السيارة قليلاً بصوت مرتفع قبل أن تتوقف على مسافة متر واحد من السيارة



الجيب التي صارت تسدّ الطريق أمامهُ الآن.. وقبل أن تتوقف سيارته تمامًا كان "محمد شارون" و"أيمن قمشة" قد قفزا من السيارة شاهرين سلاحهما واندفعا نحوه..

ضرب "محمد" زجاج النافذة المجاورة له بكعب المسدس الآلي بقوةٍ كادت أن تُهشمه، وهو يصرخُ فيه:

-هيا غادرها بسرعة.. اهبط في الحال وإلا قتلتك!

راح الكهل يرتجف.. واحتاج للحظات كي يُدرك ما يحدث.. وكانت الطلقة النارية التي أطلقها "أيمن" في السماء لإخافته هي ما أخرجه من ذهوله..

فتح الكهل باب سيارته وخرج بسرعة، ثم ألقى بجسده على الأرض بجوارها، وهو يحيط رأسه بذراعيه في رعب..

وصاح فيه "محمد" مرة أخرى بعنف:

--محفظتك والموبايل.. أين هما.. تكلم يا أحمق بسرعة!

لم يستطع الرجل الرد وقد اختنق صوته رعبًا.. لكنه حاول النهوض وهو يشير للداخل بإصبع يرتجف.. وفي اللحظة التالية صرخ فيه "محمد" وهو يثبته في الأرض:

-ارقد مكانك وإياك أن تنهض.. سأقتلك لو فعلت..

رقد على الفور.. دون أن ينظر نحوهما.. رأت عيناه وهما



ملتصقتين بالأرض الاسفلتية أضواء السيارة التي تقترب.. تمنى ان يكون بها من يُنجده.. وفي اللحظة التالية كانت سيارته تبتعد بسرعة، قبل أن تبلغه تلك السيارة القادمة..

لقد سلبُوه سيارته في أقل من دقيقة!!!

نهض بفزع واخذ يلوح بهيستريا إلى السيارة القادمة نحوه.. كان يرتجف وينتفض، وحين توقفت السيارة الميكروباص المليئة بالركاب أخذ يصرخ ويُولوِل في جنون:

-لقد سرقوا سيارتي.. الحقوا بهم أرجوكم.. إنها تلك السيارة.. انظروا! إنها لم تبتعد ويمكن أن ندركها!

ومن السيارة تعالت الهمهمات المشفقة.. جذبته يد ليجلس على أحد المقاعد الشاغرة.. وقال رجل عجوز بأسف:

-لعنهم الله.. لقد انتشر أولاد الحرام هؤلاء وصاروا كالجراد.. هذا من علامات يوم القيامة بلا شك.

بينما قال السائق بلغةِ مَن تعوَّد الأمر:

-اهدأ يا حاج ولا تقلق.. سوف يتصلون بك لتدفع لهم.. دائمًا يتصلون.. إن هدفهم المال وليس السيارة.. "ربنا يعوض عليك"

***

المذياع الان يدوى صاخبًا داخل السيارة المسروقة.. والسيارة

تعدو على الطريق الترابي بين مزارع البرتقال مخلفةً ورائها الكثير من الغبار..

وصرخ "قمشة" وهو يقودها ويقول بسعادة:

-لقد كانت عملية سهلة.. سهلة جدًّا.. اليس كذلك يا رجل؟

أزال "محمد شارون" الجالس بجواره القناع عن وجهه وبدا قلقًا وهو ينظر إلى الطريق الترابي، المظلم الضيق، والذى يحد الجانب الأيسر منة ترعة صغيرة.. وصاح فيه بخشونة:

-هدِّئ من سرعتك أيها الغبي.. لا نريد أن نبيت بها داخل الترعة.

-لا تقلق يا "شارون".. السيارة رائعة وسهلة التحكم.. انظر كيف أتحكم في "الدركسيون"؟! دعنا نسبق "علي كازوزة".

-بل سأقلق.. ولو واصلت الجري هكذا سأجعلك تهبط منها وأتركك وحدك هنا.

يعلم "أيمن" أن بإمكان "محمد" أن يُنفذ تهديده لو أراد.. لذا رضخ لتهديده على الفور وهدأ السرعة.. بدا الارتياح حينها على وجه "محمد" الذي قال وهو يخرج سيجارة من علبة سجائره:

-هكذا أفضل..

كان الأمر بعد ذلك سهلاً.. سوف يذهبون بالسيارة لأحد أوْكار المجرمين في منطقة "المثلث الذهبي" بالقليوبية.. حيث يكمن

المجرمون فيما يسمي بالدواليب المختفية في حدائق البرتقال الكثيفة في تلك القرى.. كان لكل دولاب زعيم هو في الغالب تاجر مخدرات ينتمي للمكان نفسه، بينما يقوم بحراسة المكان ثلة من المجرمين والبلطجية المُدججين بالكثير من الأسلحة الثقيلة والخفيفة.

هناك يتم تسليم السيارة المسروقة مقابل مبلغ مالي يتغير حسب قيمة السيارة الفعلية وعام التصنيع.. في الغالب كان المبلغ يتراوح بين الخمسة آلاف والعشرين ألف يتم تقاسمها بين اللصوص.. أما صاحب الدولاب فيقوم بالاتصال بصاحب السيارة حيث يتم التفاوض معه على قيمة الفدية المطلوبة مقابل إعادة السيارة.. ولو فشل التفاوض يتم تقطيع السيارة وبيعها كخردة..

وبعد ربع الساعة كانوا أمام أحد الدواليب.. دولاب المعلم "حسن الدوكش".. وكان اثنان من المسلحين برشاشات آلية قد شاهدا أضواء السيارة المقتربة فتحفزَّا.. ثم اشهرا سلاحهما الآلي في وجهها.. توقفت السيارة أمامهما وقد أطفأت أنوارها وهبط منها "محمد شارون" الذي بادرهما:

-أنا "محمد شارون".. إنها سيارة أخرى.. لا تقلقا!

لانت ملامحهما وهبطت أسلحتهما وقال الأول مازحًا:

-ألا تَكِلُّ يا ابن الكلب؟.. هذه رابع سيارة هذا الأسبوع!



رد "محمد" ورائحة البانجو التي تملأ المكان تُداعب أنفه:

-إنه رزق يا عم "حباطه".. ثم إن "حلوانكم" دائمًا محفوظ.

ربت عليه "حباطه" بودّ وأشار للداخل:

-المعلم "الدوكش" بالداخل.. هناك صنف جديد يُجربه سوف يعجبكم بلا شك.. مساء الفل يا رجال!

***

الساعة الآن هي الثالثة فجرًا..

نفس السيارة الجيب الحمراء تسير في نفس الطريق الأول.. نفس المغني الذي يُحاول أن يُغنى فيصرخ.. ونفس الأوغاد الثلاثة بداخلها.. مع سحب من دخان السجائر المحشوة بالمخدرات تملأ فضاءها.. وقال "أيمن قمشة" متذمرًا:

-ألا ترون أن الدُّكش يخدعُنا.. يُعطينا 10000 جنية فقط في سيارة لن يقبل دية فيها أقل من أربعين الفا.. هذا ظلم!!

أجابه "علي كازوزة" زاجرًا:

-اصمُت أيها الأحمق.. الأمور دومًا تجري هكذا.. ثم إنه من يتحمل كافة الأخطار فيما بعد.

-عن أي أخطار تتحدث.. إن أصحاب تلك السيارات يزحفون بعد ذلك خلف سياراتهم، ويدفعون المال له صاغرين.. حتى



الشرطة لهم رجالهم فيها.. إذن ما الخطر الذي يواجهه؟

هنا تدخل "محمد شارون" في الحديث وهتف:

-لا تكن غبيًّا يا أحمق.. إن الأمر لا يقتصر فقط على التفاوض من أجل السيارة.. المعلم "الدوكش" هو من يُخبئها، ومن يقوم بالتفاوض مع أصحابها، ويكون هو في وجه المدفع لو تدخلت الشرطة.. ثم أضف لهذا أنه من يقوم بحمايتنا لو احتجنا لهذا..

وصمت لحظة ليأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم أطلقه في الهواء ثانية، وأكمل وهو يميل نحوه:

-ثم أخبرني أيها الشجاع؟ لو لم يكن هناك الدكش وغيره، أين سنخبئُ كل هذه السيارات وكيف سنتفاوض عليها.. إنها أشياء لا نصلح لها وتحتاج للكبار ليفعلوا.. صدقني أنت مازلت "طريا" فلا تضيع نفسك بتفكيرك هذا.

صمتوا بعدها مستمتعين بتدخين المخدرات، بينما مط "أيمن قمشة" شفتيه في غير اقتناع، وبعد قليل لاحظوا أن هناك ضوءً قويًّا لسيارة ما قادمة في الخلف.. كان "علي كازوزه" أول من لمحها..

وقال وهو يُتابعها في مرآة السيارة الجانبية:

-هناك سيارة قادمة نحونا.. ما رأيكما؟

أدار الاثنان رؤوسهما للخلف ليرياها.. ثم قال "محمد شارون"



بعد أن عدل رأسه مرة أخرى:

-ماذا تعني؟..

-لا خطر في الطريق.. ولا بأس من بعض النشاط لو كانت السيارة تستحق.. أليس كذلك؟

كانوا قد اتفقوا من قبل على القيام بعملية واحدة فقط، في اليوم الواحد.. وكان هذا لتقليل المخاطرة.. كانوا قد قرروا هذا بعد ما حدث مع عصابة "محروس الأكتع"..

ففي يوم واحد سرقت العصابة سيارتين، وفى الثالثة فشلوا وتمكن الأهالي منهم.. بالطبع كان الأمر منتهيًا فما فعله بهم الأهالي تقشعر له الأبدان حقًّا..

لكن الطريق فارغٌ تمامًا الآن.. لو كانت السيارة حديثة فسيكون صيدًا سهلاً.

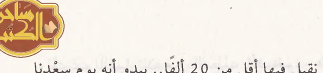
التقط "محمد" قناعه القماشي، وقال وهو يغطي وجهه:

-ليكن.. هذا رزقٌ لا يجوز ركله.

اقتربت السيارة منهم أكثر.. كانت مرسيدس حديثة.. وهتف "أيمن" بعد ان صفر بانبهار:

-واوووو.. إنها رائعة..

جاوبه "علي" قائلاً وهو يُتابع معالمها التي بدت واضحة الآن:



-هذه السيارة لن نقبل فيها أقل من 20 ألفًا.. يبدو أنه يوم سعْدنا يا رجال!

هدأ من سرعة السيارة ليسمح للسيارة المرسيدس السوداء أن تتجاوزه.. لاحظ أن قائدها بمفرده.. هذا نذيرٌ آخر بحُسْن الطالع.. تجاوزتهم السيارة فحافظ هو على مسافة غير كبيرة بينه وبينها.. كان يعلم أنه لا يوجد أي مطبات قبل كيلو متر كامل.. وكان هناك واحد صغير قبل ذلك.. لكن بعض السيارات تتجاوزه دون أن تفعل أكثر من تخفيف السرعة قليلاً.. أما الاخر فهو مرتفعٌ جدًّا ولا تجرؤ سيارة على تجاوزه في سرعة؛ وإلا دمَّرها تمامًا..

وسمع "أيمن" يهتف بالخلف:

-إياك أن يفلت منك.. سيارة هذا الأحمق قوية ولو أطلق عنانها لن نلحق بها ولا في يوم القيامة.

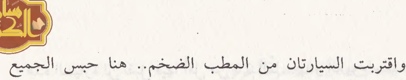
أجابه "علي كازوزه" وعيناه لا تفارق السيارة المرسيدس:

-صه يا أحمق.. عليك فقط أن تكون مستعدًّا..

ثم التفت إلى "محمد" وقال محذرًا:

-لا طلقات نارية تُنبه إلينا، ولا دماء.. نريدها نظيفة تمامًا!

ظل المطرب المعتوه يصرخ في المذياع، ولم يحاول أحدهم خفض الصوت.. كانوا مشغولين كُليةً عنه بمتابعة السيارة..



واقتربت السيارتان من المطب الضخم.. هنا حبس الجميع أنفاسهم وقال "علي كازوزة" وقدمه تضغط دواسة البنزين بقوة أكبر:

-استعدا.. سوف أغلق الطريق أمامه الآن.

تجاوزوا السيارة المرسيدس التي انخفضت سرعتها كثيرًا لتتجاوز المطب في هدوء.. وكما يحدث كل مرة ضغط "علي كازوزة" المكابح بقوة، وهو يعترض طريق السيارة متوقفًا أمام المطب الضخم مباشرة.. تابعت عيناه السيارة المرسيدس التي واصلت اندفاعها نحوهم بنفس سرعتها وكأنها تنوي الاصطدام بهم.. بدا الذعر عليهم للحظة، لكنها في النهاية توقفت على بعد خطوات منهم وصوت احتكاك إطاراتها بالأرض يصمّ الأذان.. هنا اندفع "محمد شارون" و"أيمن قمشة" نحو السيارة حاملين أسلحتهما، وصرخ الأول في قائد السيارة:

-اهبط حالاً يا "ابن الكلب" وإلا أطلقت النار عليك.. هيا تحرك!

شعرا بالتوتر حين رأوْا تلك النظرة الزجاجية الباردة في عينيه.. لم يكن هناك أي ذعر على ملامحه.. بدا كأنما ما يدور يحدث لشخص آخر غيره..

كان "محمد" في مواجهته بينما تراجع "أيمن" للخلف ليراقب.. وبعصبية وبكعب المسدس الآلي ضرب "محمد شارون" زجاج

النافذة المجاورة للرجل فتهشم على الفور مصدرا رنينًا مكتومًا وصرخ فيه:

-أخبرتك أن تغادرها حالاً.. هيا اخرج أو تموت!

قَرَنَ القول بتصويب فوهة المسدس نحو رأس الرجل.. توتر "أيمن" هو الآخر فأطلق طلقتين في الهواء لإفزاع الرجل.. في اللحظة التالية فتح الرجل الباب وخرج بهدوء.. فسحبه "أيمن" من ملابسة بعنفٍ وألقاه على الأرض، بينما صرخ فيه "محمد":

-الموبايل والمحفظة.. أين هما.. انطق بسرعة؟

كان الرجل قد نهض من سقطته ورمقهما بنظراته الباردة الخالية من الحياة وقال بصوت عميق أرعبهما:

-طالما تريدان السيارة فخذاها وابتعدا.

شعر "محمد" و"أيمن" بالرغبة في إفراغ طلقاتهما في هذا الرجل.. لماذا لا يبدو عليه الفزع كالآخرين؟.. لما لا يرجوهما أن يتركانه، أو يستجدي عطفهما كما يحدث كل مرة؟.. ولماذا لا تبدو علية ذرة واحدة من التوتر.. هذا رجلٌ مخيفٌ حقًّا!!

قاوما بصعوبة رغبتهما في إطلاق النار عليه، وأسرعا باستقلال السيارة والابتعاد بها دون الالتفات لشأن المحفظة والهاتف..

أما الرجل فقد لاحت ابتسامة غريبة على شفتيه حين ابتعدا، وهو



يتابعهما بعينية الباردتين.

***

-لا أصدق ما حدث.. هل رأيت كيف تعامل ذلك الرجل مع ما حدث؟ أقسم أنه لم يخاف منا.

هتف بها "أيمن" بتوتر بداخل السيارة.. كان مضطربًا بشدة، فلم يحدث أن قابل رجلا يسطو على سيارته دون أن يبدو عليه التأثر والذعر.. بجواره كان "محمد" هو من يقود السيارة.. كان متوترًا هو الآخر كأقصى ما يكون.. حتى قيادته للسيارة كانت سيئة فكاد أن يهوي بها في الترعة غير مرة..

وزفر بعمق محاولاً تمالك شتات نفسه، قبل أن يقول:

-هناك شيء ما غير طبيعي في هذا الرجل.. لم أشعر بالرعب من قبل مثلما شعرت حين نظرت إلى عينيه.. هل رأيت كيف كانت عيونه.. إنها من زجاج كعيون الموتى!! ووجد نفسه يتنهد مرة أخرى من الإثارة، قبل أن يكمل:

-يا إلهي!! إنهما عينان ميتتان بالفعل.. لقد رأيت عيونا باردة ميتة من قبل كثيرًا.. أقسم أنه يمتلك عينين ميتتين!!

غَالَبَ "أيمن" توتره وغمغم بتأثر:

-هل تعلم؟ لقد أوشكت أن أُطلق عليه الرصاص.. شعرت للحظة



أن قلبي سوف يتوقف من الرعب، وأن عليَّ أن أقتله.

ظهر كلب فجأة على الطريق المظلم أمامهما فضغط "محمد المكابح بقوة وهو يطلق سبابًا غاضبًا.. توقفت السيارة وتابعهما الكلب ببصره للحظة غير عابئ بهما قبل أن يتحرك من أمامهما مبتعدًا.. وصرخ "أيمن" فيه بحنق:

-تحرك أيها الكلب اللعين وابتعد.. ابتعد وإلا عدنا ودهسناك..

لم يكونا متوترين فحسب، في الواقع كانا يرتجفان وإن جاهد كل منهما كي لا يشعر الآخر بهذا.. شعر "محمد شارون" أن الدماء تحتشد في عينيه حاجبةً الرؤية عنهما، فخفض من سرعة السيارة كثيرًا كي لا يهوي في المنحدرات أو الترعة من حوله.. ثم رفع صوت المذياع بصوت عال صاخب كي يُقلل توتره.. وراحت عيناه تراقبا الطريق المظلم الممتد أمامه بلا نهاية..

بينما أخذ "أيمن" هو الآخر ينظر إلى الإشجار المظلمة عن يمينه، والأراضي الزراعية الممتدة خلفها بلا نهاية، والتي يخفيها الظلام مُحولا إياهما لكتل سوداء مخيفة..

وكان "أيمن" هو أول من شعر أن هناك من يتبعهما!

شعر أن هناك شيئًا ما يتحرك من بعيد بين الحقول ويعدو بين الأشجار ليلحق بهما..



أغمض عينة للحظة، وفتحهما ليتأكد أنه غير واهم.. فتش بعينيه في الحقول المظلمة لكنه لم يرَ شيئًا..

هل كانت عيناه تخدعانه؟..

تنهَّد بارتياح، لكنه قبل أن يلتقط أنفاسه عاوده الإحساس أن هناك من يتتبعهما.. فعاود النظر في الأراض المظلمة.. دَعَكَ عيناه بكفيه متسائلاً هل يتخيل هذا؟.. وهل يكون البانجو الذي تناوله منذ أقل من ساعة بكثرة يتلاعب بعقله الآن..

وقال له "محمد" حين لاحظ ما يقوم به:

-ماذا هناك؟.. ولماذا تنظر للحقول هكذا؟.

-لا أدرى.. أشعر أن هناك من يتعقبنا!

شعر "محمد" بالتوتر.. تطلع بسرعة إلى يمينه.. لم ير شيئا.. فقال مطمئنًا:

-ربما كان كلب أو ثعلب.. الكثير منها يعيش بتلك الأراضي والمزارع.

هزَّ أيمن كتفية بعدم اقتناع وقال مغمغمًا:

-ربما!!!

وبعد قليلٍ كان "محمد" هو من يشعر أن هناك من يُراقبهما هذه



المرة.. هل انتقلت عدوى التوهُّم اليه؟.. نظر بطرف عينية إلى الترعة.. كان الماء الأسود يتموج وهناك من يسبح داخله بسرعة مساوية لسرعة السيارة..

-هذا مستحيل!!!

قالها لنفسه بصوت عالٍ وهو يهزّ رأسه بعنف.. والتفت اليه "أيمن" بحدة وسأله بقلق:

-ما هو هذا المستحيل؟

-لا شيء.. أنا لم أقل شيئًا!

لم يشأ أن ينقل عدوى الفزع إلى "أيمن".. لابد أنه يتخيل.. ومرة أخرى التفت برأسه نحو الترعة.. لكنه لم يرَ شيئًا، عادت المياه كما كانت راكدة سوداء ساكنة.

نظر أمامة ثانية فلمح بطرف عينيه شيئًا يسبح فيها متتبّعًا إياهما.. تصاعد توتره للذروة ووجد نفسه يضرب مقود السيارة بكفه بعصبية.. لابد أن ذلك الرجل البارد هو مصدر هذه الأوهام.. لقد أصابه بالتوتر فصار يتوهم أشياء لا وجود لها..

ليته قتله!!!

وبعد أقل من خمسين مترًا كان هناك جذع الشجرة الذي يسد الطريق أمامهم.. كان من المستحيل أن يكمل طريقه فاوقف



السيارة وقال بتوتُّر وهو يتلفت بعينيه في الأرجاء محاولاً اختراق الظلام ليرى إن كان أحدٌ هناك:

-من أين أتى هذا الجذع؟.. لم يكن موجودًا منذ قليل..

لم تكن هناك من إجابة.. وقال "أيمن" وهو يفتح باب السيارة ويخرج منها، وهو يرفع سلاحه بحذر وريبة:

-دعنا نخرج لنُزيحه أولاً.. ربما كان فخًّا!

لحقهما "علي كازوزة" بالسيارة الجيب في اللحظة التالية.. أخرج رأسه من النافذة وصاح فيهما:

-لماذا توقفتما؟

-هناك جذع شجرة يسد الطريق.. تعال وساعدنا لنُزيحه.

هبط من السيارة متعجبًا، وعيناه تجوب المكان متسائلاً من أين جاء هذا الجذع، ولا أشجار تلوح بجواره؟!!

التفوا حول جذع الشجرة محاولين إزاحته.. كان هذا حين شعروا بان هناك من يقف خلفهم؟!

التفتوا بعنف وخوف ليروا من يكون؟.. وهناك كان صاحب السيارة المسروقة واقفًا أمامهم، وهو ينظر إليهم بعينية الزجاجيتين وعلى جانب شفتيه ابتسامة مخيفة..

هل تشع عيناه حقًّا؟..



شعروا بهذا فازدادوا هلَعًا!!

كان "أيمن" مازال يحمل المسدس الآلي على كتفه.. فصرخ وهو يصوِّبه نحو الرجل قبل أن يطلق دفقات متتالية من الرصاص نحو صدره.. لكن الرجل لم يتحرك ليتفادى سيل الطلقات التي انهمرت عليه. وظل بمكانه مبتسمًا رغم الرصاص الذي يُصيبه.

بالجوار كان هناك فلاحٌ مُسِنّ خرج مُبكرًا ليسقي أرضه.. وفي اليوم التالي حكى لأحد جيرانه أنه سمع طلقات متتالية من الرصاص قبل صلاة الفجر بقليل على الطريق تبعتها صرخات مُريعة لبعض الرجال.. وحين وصل إلى المكان الذي جاء الصوت منه، لم يجد إلا سيارة جيب حمراء، وجذع شجرة ضخم يسد الطريق أمامها، ولا أحد هناك غير ذلك..

***

في أوقات متقاربة أفاق الثلاثة..

كانوا مقيدين إلى جذوع أشجار ثلاثة في وضع مقلوب، وقد تعروا من ملابسهم بالكامل، ومن حولهم امتدت الصحراء مظلمة واسعة مخيفة.. وأمامهم وعلى بعد امتار كانت هناك شعلة هائلة يتأجج نارها ويرتفع دخانها حتى الفضاء، وقد التف حولها الكثير من الرجال..

شعروا بفزع مُميت.. أرادوا أن يتحدثوا، فلم يصدر منهم إلا



همهمات خافتة.. ليدركوا أن أفواههم مُكممة..

ثم اقترب منهم الرجل صاحب السيارة.. وقد انتبه إلى يقظتهم.. وقال لهم مبتسمًا وهو يحرك كفية بحركة مسرحية:

-جميل أن استيقظتم..إننا بانتظاركم

كان الفزع والخوف هائلاً.. عينا الرجل تشعَّان وتبرقان كأنهما مصابيح خضراء صغيرة.. أسنانه تبدو الآن غريبة!!.. بدَت كمجموعة من الأنياب فقط..

لم تفارق أعينهم الأسنان المُخيفة!! واتسعت ابتسامة الرجل المخيف سعادة برُعبهم المكتوم.. وفي اللحظة التالية انحنى أمامهم بصورة مسرحية تمامًا وأكمل قائلاً بصوته البارد المُخيف:

-مرحبًا بكم أيها السادة في أرضنا البعيدة.. أرض الغيلان.. هل سمعتم بنا من قبل؟

والتفت إليهم الجميع الآن.. كان الجحيم هو ما يروه الآن.. أشكال كثيرة مخيفة.. أجساد متحورة.. عيون تشع.. أنياب مخيفة تستطيل، وضحكات صاخبة لا تتوقف..

وأكمل الرجل بهدوء:

-نحرص دائمًا أن تكون وجباتنا طازجة.. ويسعدني أن أُخبركم انكم وجبتنا لهذا اليوم!!



كان ما حدث بعدها هو الهوْل نفسه.. اندفع جميع الغيلان نحوهم.. حملوهم بالجذوع الخشبية مندفعين نحو النيران التي بَدَت هائلة مرعبة الآن.. فكر "محمد" في أمه التي تنتظر عودته بالنقود.. وبال "أيمن" على نفسه في رعب، وهو يتمنى على أن يكون الموت سريعًا.. بينما تمنى "علي" لو كان قد التهم شريطا كاملا من الترمادول، ليحتمل الجحيم القادم!!

ثبَّت الغيلان الجذوع على أطواق فوق النار ليقوموا بشيِّهم..

وكان الألم مخيفًا لا يُحتمل!!

وراحوا يتساءلون بلا إجابة!!

متى ينتهي هذا العذاب؟

لكن الالم ظل طويلاً..

بينما كان ضحكات الغيلان السعيدة تُحاصرهم بلا توقف...





كانت في معملها تعمل بحماس.. التقطت إحدى المستعمرات الفطرية بأداة دقيقة، ثم قامت بصبْغها بصبغة حمراء قانية، وثبتتها على إحدى شرائحها، ووضعتها في النهاية تحت الميكروسكوب الإليكتروني..

بعد قليل شعرت أن النتائج متوافقة مع ما توصل إليه "وائل" –الباحث الشاب الذي تشرف على رسالته لنيل درجة الدكتوراه– فتنهَّدت بارتياح.

بدت راضيةً تمامًا وهى تُعيد كل شيء إلى مكانه بحرص قبل أن تخلع قناعها الواقي وتُغادر المعمل نحو مكتبها..

تذكرت أن "وائل" طلب منها قبل مغادرته، أن يستعمل جهازها "اللاب توب" ليُرسل رسالة عبر بريده الإليكتروني.. وتساءلت باستمتاع، هل مازال بمكتبها، وهل ينتظرها في الحجرة؟.. بدت ابتسامة خفيفة على شفتيها حين لاح "وائل" على مخيلتها وتمتمت بتمنٍّ:

–"ليته يكون هناك!"..

ابتسمت إلى دكتور مسنٍّ يُحيِّيها برأسه.. وأعطت "أم الخير" عاملة النظافة بالمكان، بعض المال لتدعو لها الأخيرة بالعمر الطويل والسعادة.. كانت تشعر بالتفاؤل والسعادة، فبدا كل شيء



في عينيها جميلاً!

دلفت إلى حجرة مكتبها.. لم يكن "وائل" هناك.. عادت لتبتسم بإحباط، وقد كانت تُمني نفسها أن تجده في الحجرة ليُطرب أذنها بغزله المثير، قبل أن تجلس على أريكة واسعة، ثم تغمض عينيها مستمتعة بذكرياتها الجميلة التي بدأت قبل عام.

أيكون "وائل" تعويضها الحقيقي عن حياة ضاعت دون رفيق أو زوج أو حبيب؟! أيكون ذلك الشاب الصغير الذي أذاب الجليد عن مشاعرها التي طمرتْها بيديها تحت أطنان من الحرمان واللامبالاة واليأس هو غدها المشرق؟!

لم تكن تعرف أن الفرص التي تُغادرها في شبابها الأول لا تعود ثانية حين يُولِّي ذلك الشباب.. وحين كانت في العشرينات من عمرها انهالت عليها الكثير من فرص الزواج.. وكان الكثير منها ملائمًا.. لكنها رفضتها جميعًا بحسم، وقد قررت أن تؤجل الارتباط إلى ما بعد انتهائها من دراستها العليا.. مرت الأعوام وأنهت دراستها العليا.. وكانت قد تجاوزت الثلاثينيات من عمرها حينها؛ فتقلصت عروض الزواج أمامها، إلا أنها لم تندثر تمامًا.. فمن حينٍ لآخر كان هناك من يتقدم لها.. لكن ارتباطًا رسميًّا لم يتم أبدًا.. كانت تشعر في ذلك الحين وقد صارت في منتصف عمرها أنها بحاجة إلى شيء لم تعرفه من قبل.. لا تريد رجلاً ليُقال



إن في حياتها رجل، ولم يكن ما تفتقده إنجاب الأطفال وتربيتهم.. بل كان ما ينقصها أمر آخر لم يعترض حياتها من قبل!

كانت تهفو إلى الحب!.. ولهذا عادت لترفض كل من يطرق باباها وتنتظر من يطرق قلبها، لاحظت كيف اختفى الشباب الذين كانوا يطرقون بابها لخطبتها من قبل، ليأتي بدلاً منهم رجال انحصر الشعر من فوق رؤوسهم ونمت الكروش في بطونهم!

كان بعضهم يبحث عن الفرصة الأخيرة للحاق بقطار الزواج قبل مُضيّ العمر.. وبعضهم الآخر كان يبحث عن بداية جديدة بعد انتهاء تجربة زواج سابقة لم ينجحوا فيها.. وراح أكثرهم يبحث عن امرأة في الظل، تشعره بفحولته وجاذبيته في الخفاء، لتظل زوجته الاولى هي نهاره والحقيقة الوحيدة في حياته أمام الناس، وتصير هي الليل والمتعة السهلة والسرّ الدفين..

طالما تساءلت وقطار العمر يمضي دون أن يجد في طريقه محطة يتوقف عندها ملتقطًا أنفاسه، وملتمسًا بعض الراحة والسعادة التي لا تأتي:

"هل أخطأت حين أجَّلت الارتباط والزواج والحب، إلى ما بعد انتهائها من دراستها العليا، وتثبيت أقدامها كأستاذة جامعية في كلية الطب؟! هل فاتها قطار الأحلام السعيد الذي يحمل على قضبانه السعادة والحب؟!"



كانت تلك وغيرها هي الأسئلة الصعبة التي تُراود عقلها دومًا، وتبثُّ اليأس في روْحها لأعوام. حتى ظهر "وائل"! الطبيب الوسيم الشاب المنحدر من عائلة كريمة وثرية. كانت مشرفته على رسالة الدكتوراه.. كما كانت تكبره بعشرة أعوام كاملة!

كان لطيفًا دون أن يتصنَّع خفَّة الدم.. وبدا مهتمًّا بها دون أن يبدو هذا في صورة مُبتذلة.. راح يقتحم أسواراها العالية المنيعة دون أن يُشعرها أن هذا ما يحدث.. وحين نجح في الوصول إليها، لم تصدق ما يدور لها، ولم تدر كيف حدث هذا؟!

في لحظة ما أدركت أنها تحبه.. تنتظر اتصاله بها.. تسعد بوجوده بجوارها.. يعجبها تهكمه الدائم من كل شيء ودعابته الحاضرة طوال الوقت.. وتهيم عشقًا بهدوئه ورجولته.

في البداية كانت تشعر بخجل ينهشها.. أتُحب الأستاذة الجامعية المحترمة، أحد طلابها وتفكر في الارتباط به.. يا للعار والفضيحة؟!.. سيكون الأمر حدُّوته الصباح والمساء في الجامعة، لو علم أحد بهذا.

لكنه كان بجوارها ليُزيح كل توترها وخوفها.. كان دومًا هناك ليُبدد هواجسها ويُحطم تعقُّلها ورفضها!

ووجدت نفسها تهيم به ولا تقوى بُعده.. صارت ترى العالم بعيون أخرى غير تلك العيون التي اعتادت الميكروسكوبات، والنظارات



المكبرة، والطفيليات، والكائنات الدقيقة..

تغيرت الألوان في عالمها.. لم تعد فقط تلك الزرقاء الكالحة والحمراء الباهتة التي تُميز الصبغيات التي تعمل عليها في المعمل.. باتت هناك زنابق بيضاء وورود حمراء وأزهار صفراء وفراشات بنفسجية.. تبدَّد البرد الذي عاشت في كنفه أعوامًا طويلة، لدفء أغنيات أم كلثوم ونجاة وفيروز.. تغيرت ملابسها ذات الذوق الهادي والألوان الميتة إلى أخرى صارخة، ضيّقة، زاعقة بالحياة..

صارت الدكتورة "وفاء" واحدة أخرى.. "وفاء" فقط.. امرأة عاشقة.. حالمة.. وتحب!!

وبعد دقائق من التيه في عالمها أفاقت.. اتجهت للمكتب وفتحت اللاب توب.. فتحت صفحة المتصفح "فاير فوكس" لتدلف إلى صفحتها على الفيس بوك.. لاحظت هنا شيئًا غريبًا.. الصفحة الرئيسية للفيس بوك مازالت تحتفظ بكلمة المرور الخاصة بوائل، والذى لابد أنه لم يقم بمسحه حين انتهى من العمل على جهازها!

امتدت يدها ببساطة لتحذفها، لكنها توقف في اللحظة الأخيرة.. كان هناك خاطرٌ يُلح عليها.. لماذا لا تدخل على صفحته أولاً، لترى ما يُخفيه فيها؟.. بدا الأمر غير أخلاقيّ ولا يليق بها أن تقوم بشيء كهذا.. لكن الإلحاح والفضول كان أكبر من مقاومتها!



وبتردد ضغطت أيقونة الدخول.. لحظات وفتحت الصفحة..

طالعتها صورته الضاحكة المليئة بالحياة وهو بلباس البحر والبحر من خلفه.. راحت تقرأ بعض البوستات التي يكتبها وتعليق أصدقائه عليها، ثم هبطت لترى ماذا يهتم على صفحته.. كان أكثر اهتمامه الصفحات الرياضية والموسيقية، والقليل من الصفحات الثورية التي انتشرت بعد الثورة..

بدت صفحته شبابية تمامًا كما توقعتها.. وعلى قائمة أصدقائه كان هناك الكثيرات.. شعرت ببعض الغيرة لكنها حاولت تجاهل مشاعرها تلك، لأنها تدرك جيدًا إن هذا ما يفعله الجميع الآن.. لا أحد يحيا بغير أصدقاء وصديقات.. كان علبها ألا تخنقه بغيرتها، كي لا ينزلق من بين يديها ويفر منها!

همس شيطانها في أذنها موسوسًا لها أن ترى رسائله الشخصية.. ماذا يقول لأصدقائه وماذا يقولون له؟.. هل يحدثهم عنها؟.. ولو كان يفعل، فماذا يقول عنها وما رأي أصدقائه في علاقتهما العجيبة هذه؟

لكنها عادت وترددت في أن تفعل هذا.. خشيت أن تقرأ بها ما لا يرُوقها، لكن الفضول كان متأججًا.. ثم قررت في النهاية أن تفتح الرسائل...

***



أَقَتَلَ الفضولُ القطَّ حقًّا.. أم أن ما قتله هو معرفة الحقيقة؟!

أظلمت الدنيا في عينيها تمامًا.. ولبعض الوقت تجمدت عينيها وهي جاحظة على اتساعها دون أن تعي الضوء من حولها.. راح جسدها يرتجف أو لنقل إنه كان ينتفض.. وانهمرت الدموع على وجنتيها كصنبور معطوب.. أذابت الدموع الطلاء والبودرة والكحل فامتزجوا في مزيج كئيب.. وتداعت الدنيا فوق رأسها حتى تمنَّت لو يتبخر الكون الآن وتفنى الحياة..

إنها النهاية!

ما خافت منه كان هو أول ما واجهها.. كانت الفجيعة في أول رسالة تقرأها في بريده، في محادثة بينه وبين فتاة أَسْمَتْ نفسها "سالي روح الحياة"، وقد وضعت صورة أنثى عابثة لعوب كواجهة لها..

كتب لها وائل:

"وحشتيني جدًّا جدًّا.. أفتقدك بشدة.. لم أستطع مُحادثتك بالليل.. كنت أتكلم مع الدكتورة.. أقصد ماما الدكتورة.. هههههه.. مازالت كما هي، تحاول فرض حبّها عليّ.. الكثير من كلمات عن الليل والنجوم وأغاني نجاة وأم كلثوم الكئيبة وهي تظن أن هذا يجعلها رومانسية في عيني.. طالما رغبت إخبارها أن حبها هذا ورومانسيتها المزعومة، ومفردات عشقها، صارت



قديمة، وموطنها الحقيقي الآن هو المتحف.. ولكن دعينا من هذا الآن.. واخبريني ماذا فعلت مع أبيك أول أمس حين تأخرت معي.. حاولت الاتصال بك دون جدوى.. أنتظر ردك لأطمئن.. أحبك"

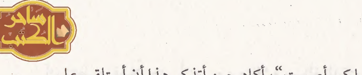
ثم أنهى رسالته بصورة كاريكاتورية تحمل قُبْلةً كبيرة..

لم تر ما بعد الرسالة ولم ترغب في أن ترى المزيد.. بدت كلماته القاسية كخناجر تطعنها وتمزقها، وراحت الكلمات تتردد في عقلها وتدوي كعشرات الطبول التي تصيبها بالجنون، راحت أنفاسها تتسارع وقلبها يدقّ بعنف.. أيُسميها الست الدكتورة ماما؟.. أيراها عجوزًا لهذه الدرجة؟.. أيقول إنها هي من فرضت عليه حبها.. ألم يكن هو من حاول معها مرارًا قبل أن تقبل؟.. ألم تدخله عالمها وقلبها لأنه أحبها كما زعم لها؟!

عادت لصوابها بعد قليل فأرادت أن ترى المزيد.. أرادت أن تعرف ماذا قال عنها غير هذا!.. أردت أن تكتوي بنار كلماته أكثر وأكثر، وأن تحترق بلَظَاهَا، عسى أن تُكفر عن ذنبها وأنها أحبته.. هبطت إلى رسائل أقدم ومحادثات أخرى مع سالي تلك..

وقرأت حوار دار بينه وبين سالي تلك قبل يومين..

وائل: أكاد أموت من الضحك حين أتذكر رأس ذلك الشحاذ وهو يقتحم نافذة السيارة بينما أُقبِّلك وهو يقول "ماذا تفعلون؟..



أعطوني جنيها كي أصمت"، أكاد حين أتذكر هذا أن أستلقي على قفاي من الضحك.

سالي: أنت أحمق.. أتظن أن ما حدث مسليًا بالفعل؟.. لقد كاد قلبي يتوقف حين وجدت رأسه خلف رأسي فجأة..

وائل: دعي قلبك يتوقف وسوف أُعيده.. ألسْتُ طبيبَهُ وصاحبه؟

سالي: دكتور ميكروبات وفيروسات.. هذا هو أنت ولا شأن لك بالقلوب!

وائل: "صورة لطفل يبكي".

اكتفت من هذه المحادثة وبحثت عن أشياء أقدم.. الكثير من الأغاني.. الكثير من عبارات الغرام التقليدية.. وبعد دقائق وصلت لحوار ذكرها فيه ثانية!

سالي: عدْني أن تجد حلاًّ.. أبي يُطالبني بأن أقبل هذا العريس.. وأنت ترفض أن تتقدم.

وائل: لا يُمكنني التقدم لخطبتك في هذا الوقت.. لأنني لا أستطيع أن أخبر "وفاء" بالحقيقية الآن، وإلا ضاع مستقبلي.. إنها مشرفتي الرئيسية؛ ولو شاءت لحرمتني من النجاح للأبد.

سالي: وما شأني بهذا.. أيجب على كل دارس أن يُحب مشرفته..

وائل: بالطبع لا.. لكن هذا ما حدث لي لسوء حظي.. أريدك فقط

أن تنتظري قليلاً حتى أنتهى من مناقشة رسالة الدكتوراه، وحينها سوف أهجُرُها تمامًا، وسأتقدم لخطبتك حينها على الفور.

سالي: لكن هذا قد يطُول.. أنت لا تدرى ماذا يدور بهذا البيت.. في كل يوم هناك عريس ما، وكل مرةٍ لا أخبرهم بغير الرفض.. صار الامر كابوسًا سخيفًا.

وائل: صدقيني لن يطول الأمر يا حبيبتي.. لم يبق إلا عام على الأكثر.. عام واحد فقط.. هههههه.. أو ادعي الله، أن يُميت تلك الشمطاء، فتنتهي معاناتنا.. ههههه!

سالى: هههههه.. يارب..

هنا لم تستطع أن تُكمل أكثر.. هل ينعتُها بالشمطاء... أيتمنى لها الموت؟.. أتراها عرفت "وائل" آخرَ غير هذا الذي تقرأ ما كتبه لعشيقته من كلام قاسٍ قاتل عنها.. "وائل" الذي تعرفة كان دومًا يدعوا لها أن يطول عمرها أكثر منه.. كان يبثُّ في أذنها دعوات حارة بأن يدوم جبهما معًا حتى يموت الحب نفسه وينتهى الكون!

لكن كل هذا كان كذبًا.. كل هذا كان اختلاقًا.. كل هذا كان تلاعبًا بمشاعرها كي يصل ذلك الحيوان إلى النجاح في دراسته.. بدا في عينيها حقيرًا.. لئيمًا.. شيطانًا!

تمنت لو تقتله بيدها، وليشتعل العالم بعدها..

عادت دموعها لتغرق وجهها مرة أخرى.. فأغلقت اللاب. وقد



رأت ما يكفي.

استمرت بمكانها دون حراك لساعات.. التهبت مشاعرها واحترقت حتى انطفأت جذْوتها.. وَرَاوَدَ عقلها آلاف الأفكار.. فكرت أن تنتحر.. أن تقتله ثم تنتحر.. أن تقتله وتسلم نفسها للشرطة.. أن تتركه وتكتفي بالقضاء على مستقبله الأكاديمي في الكلية!

فكرت أن تستقيل وتسافر بعيدًا إلى إحدى دول الخليج، وألا تعود لهذا المكان ثانية..

لكن أي من تلك الحلول لم تُرضها.. لقد كَتب عليها العذاب بخداعه، وعليه أن يتعذَّب مثلها أو أكثر منها.. يجب أن يعاني مثلما تُعاني وكما ستعاني طويلاً.. يجب أن تُفكر في عقابٍ شنيعٍ يُرضي قلبها المكسور وروحها الجريحة!

وهَبَطَ الحل على رأسها فجأة.. بدا ملائمًا تمامًا لانتقامها.. وللمرة الأولى منذ ساعاتٍ لاحت ابتسامة حقيقية على شفتيها!

***

سمعت دقات يدية المميزة على باب حجرتها قبل أن يدلف دون أن ينتظر أن يسمع دعوتها له بالدخول.. مازالت هناك تلك الابتسامة التي لا تُفارق وجهه موجودة.. لكنها بدتْ في عينيها هذه المرَّة مختلفة.. كانت ابتسامةً ماكرةً خادعة.. ابتسامة ساخرة تُخرج لها



لسانها وتقول ساخرة:

-مازلت أعبث بك وأخدعك أيتها العجوزة..

- ماذا بك، ولماذا تُحدقين في وجهي هكذا؟!

أيقظتها كلماته من تأملاتها.. أسرعت برسم ابتسامة مُقتضبة على وجهها وأجابت:

-لا شيء.. لا شيء.. أنا فقط أُحب أن أراك وأنت تبتسم.

استرخى على مقعدة أكثر وأكثر بثقةٍ وهو يقول:

-وأنا أحب أن أراكِ في كل وقت!

قالت وهى تُغالب رغبةً بداخلها أن تلطمه وأن تبصُق على وجهه:

-دعك من الغزل الآن ولنتكلم في شيءٍ مهم.

-ولماذا أدعني منه.. أنتِ عملي الوحيد، وحبك هو الشيء الحقيقي الوحيد في حياتي!

قالتها صادقة وإن جاهدت لتبدو مازحة:

-أنت كاذب؟

-وأنتِ تلهبين مشاعري كلما أراك.

آلاف المراجل البخارية كانت تغلي بأعماقها.. ألا يكفُّ هذا الشيطان لحظة واحدة عن كذبه وابتسامته الخادعة تلك؟!



قالت وهى تنهض مُخفية وجهها عن وجهه لتُخفي ملامح الكراهية التي تُجاهد كي لا تغزو ملامحها:

-أخبرني يا "وائل".. ما رأيك لو أضفنا فيرس بي إلى قائمة الفيروسات التي نختبر عليها العقار الذي تُعد بحثك عنه؟

بدا وجهه ممتعضًا للحظة وخَبَتْ ابتسامته بإحباط، إلا أنه تمالك نفسه بصورة أذهلتها وهو يقول بهدوء:

-ولماذا يا "وفاء".. إننا نُجرى تجاربنا على خمسة فيروسات وأنواع مختلفة من الفطريات والبكتريا بالفعل.. ألا ترَيْن أن هذا كافيًا؟

رسمت ابتسامة مُشجعة على وجهها وهى تُجيبه:

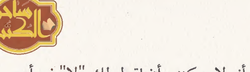
-ليس كما أحلم.. أنا أرغب في أن تُقدم بحثًا يُبهر الجميع.. أريد أن يرى الجميع عبقريتك.. لن أتنازل عن تقديم بحثٍ قيِّم ينشر في كل الدوريات الطبية المحترمة.

قال معترضًا:

لكن هذا سيُطيل الامر؟

-لا تقلق.. لن يطول الأمر.. فسوف أكون معك وهذا سيختصر الكثير من الوقت.

بدا غير مقتنع؛ إلا أنه لم يملك الرفض وقال باستسلام:



-ليكن يا حبيبتي.. تعلمين أنه لا يمكنني أن اقول لك "لا" في أي شيء تقترحينه!

قالت وابتسامة حقيقية ترتسم على وجهها:

-ولهذا أنا أُحبك.

قالتها واتجهت إلى ثلاجة صغيرة؛ وأخرجت منها محقنًا صغيرًا والتفتت إليه، فقال وهو ينظر إليها بحيرة:

-ما هذا؟..

-إنه مصل فيروس بي.. أحضرته من أجلك.. تعلم إنها جرعات ثلاث كي لا تصاب به لو حدث حادثٌ ما، وهذه هي الجرعة الأولى.

ابتسم مطمئنًا وقال في استسلام:

-يبدو أنك قد أعددتِ العدة لكل شيء.

ملأت المحقن بالسائل الرائق وهي تقول:

-أنا ملاكك الحارس.. والآن هيا اكشف عن ذراعك.

حقنته بالمصل في ذراعه، ثم تنهّدت بارتياح ولمعت عيناها وهي تقول:

-لقد انتهيت.. هل شعرت بشيء؟



تحسَّس مكان الحقنة الذي يؤلمه قليلاً وغمغم بضيق:

-لم أشعر بشيء.. يدك رقيقة مثلك تمامًا.

قالت بهدوء وقد غاضت ابتسامتها:

-أنت لا تكف عن طرح كلماتك الحلوة على أُذني.. كم أنا محظوظة بك؟!

أجابها وهو يستعيد ابتسامته:

-هذا لأنني لا أكف لحظة عن حبك

***

وبعد أيام تغيَّب عن الحضور إلى الجامعة.. اتصل بها على هاتفها المحمولَ.. أجابتهُ فوصلها صوته ضعيفًا واهنًا عبر الهاتف:

-لا أدرى ماذا يحدث لي.. أشعر بوهن شديد.. جسمي يتمزق.

شعرت بالحماس.. لكنها أخفت هذا وقالت بلوْعة متصنعة القلق:

-ماذا بك يا حبيبي.. لقد أقلقتني.. أخبرني بما تعانيه؟

صمت للحظة وهو يتأوّه، قبل أن يجيب:

-ربما هو البرد أو الانفلونزا.. حرارتي مرتفعة وقد تجاوزت الأربعين منذ الصباح، وهناك بعض الزكام وآلام رهيبة في كل جزء من جسدي، كأنما دهسني قطار.



-يا إلهي.. ما كل هذا؟.. هل تناولت أي شيء لتخفف من تلك الأعراض.. ما رأيك بقرصين بنادول؟

-لقد تعاطيت ثلاثة أقراص منذ الصباح دون جدوى.. ربما يجب أن أتناول قرصًا رابعًا.. مازالت الحرارة مرتفعة وتأبى الهبوط.

-هل ترغب في أن أزوك لأعتني بك؟.

-كلا.. لا ضرورة لهذا.. لو استمر الأمر فسوف أرسل في طلب أي طبيب زميل.. المهم أنني لن آتي اليوم وربما غدًا كذلك.

لقد بدأ المرح.. فكَّرَتْ في سعادة.. وأسرعت تجيبه كي لا يدرك فرحها بما يُعانيه:

-لا تقلق بشأن أي شيء يا حبيبي.. اهتم بنفسك ولا تأتي قبل أن تُشفى تمامًا..

-أشكرك يا "وفاء".. لا أدري ماذا كنت لأفعل بغيرك.

- كنت لتنجح بالطبع يا حبيبي.. أنت رائعٌ وتُجيد النجاح.

أنهت الإتصال بعدها، وقد بدتْ قسوة عجيبة ترتسم على ملامحها.. الأمر لم يكن مجرد إهانة أو قصة حب فاشلة.. لقد تلاعب بمشاعرها للوصول إلى هدفه.. لم يكن ليبالي حتمًا بما سوف تُعانيه حين يأتي الفراق الحتمي.. لم يفكر بالتأكيد في أحلامها التي ستتحطم على صخرة قسوته حين يُغادرها بلا



عودة.. لن يشعر يومًا بآلامها حين تتلمس أنفاسه أو تبحث عنه فلا تمسك بيدها إلا دخانًا وضبابًا!

من يفعل هذا لا يستحق الحياة.. من لا تهمه معاناة الآخرين وشقاءهم وعذابهم لا يستحق الشفقة والحياة..

وفي المساء اتصلت به ثانية.. واقتضى الأمر وقتًا حتى يُجيب.. أتاها صوته أكثر وهنًا؛ مُحملٌ بالكثير من التأوهات.. وقال بضعفٍ وألم:

-"وفاء" النجدة.. أشعر أنني سوف أموت!

هنا صرخت في أُذنة في لوعةٍ مُزيفةٍ:

-لا تقل هذا يا حبيبي..لا تقل هذا أرجوك.. ماذا بك، هيا تحدث معي.

تأوّه لفترة طويلة وبدت أنفاسه سريعة لاهثة وهو يقول بضعف:

-الحرارة مازالت مرتفعة.. ولم أعُد أستطيع تحريك أي جزء من جسمي دون آلام مبرحة.. حلقي مشتعل كالنار، وهناك بعض الفقاعات المائية قد ظهرت على جلدي.

أدركت أن الأعراض قد اكتملت.. لقد وصل إلى نقطة اللاعودة.. فقالت له بهدوء:

-أرى أن تذهب إلى المستشفى حالاً.. أعتقد أن هذا أفضل ما



تفعله.

قال وهو يبكي:

-ماذا تقصدين؟.. هل تشكين أنني أُعاني من مرض خطير؟

-كلا..كلا.. أنا لا اشك في أي شيء.. لكن يجب أن تكون الآن في المستشفى.. سوف أتصل بالإسعاف وأرشدهم إلى مكانك.. لتكن مستعدًا.

أنهت الإتصال واتصلت برقم الإسعاف.. طلبت منهم أن يذهبوا إليه بعد أن أعطتهم عنوان منزله، ثم قالت لهم قبل أن تُغلق الخط بصوتٍ ساخر:

-أرى أن تحتاطوا للأمر، وأن ترتدوا أقنعتكم الواقية قبل أن تتعاملوا معه.. أشك أنه يُعاني من مرضٍ معدٍ خطير.

***

بدت الحيرة على الدكتور فهمي استشاري الأمراض المُتوطنة والحميات وهو يُطالع نتائج التحاليل التي أجريت ل"وائل".. بدت كرات الدم البيضاء أقل من معدلاتها بكثير.. وكان هذا يعنى خلل مناعي خطير. كان يقف حينها خارج حجرة العزل التي وضعوا "وائل" بها.. انتبه للدكتورة "وفاء" القادمة بخطوات واسعة نحوه.. حاول أن يرسم ابتسامة ما على شفتيه:



-مرحبًا يا دكتورة.. جئتِ في وقتك.

تظاهرت بالتوتر والقلق وهى تخلع نظارتها الشمسية وتقول بلوعة:

-ماذا هناك يا دكتور فهمي؟.. ماذا وجدتم في "وائل"، ولماذا وضعتموه في حجرة العزل؟

مدَّ يده نحوها بنتائج فحوصات "وائل" وهو يقول:

-انظري بنفسك.

تناولت الأوراق منه وتفحَّصتها باهتمام مُصطنع.. كانت تتوقَّع كافة تلك النتائج.. رسمتْ على وجهها تعبيرًا بالدهشة والذعر وهى تهتف:

-يا إلهي.. يا إلهي.. ما كل هذا؟.. حتمًا هناك خطأ ما في الأمر!

- لسوء الحظ لا خطأ هنالك.. إنها نتائجه.. لقد كررناها مرتين.. كانت نفس النتيجة في كل مرة.

وضعت كفها على وجهها للحظات، ثم غمغمت:

-وماذا عن فحص الأجسام المضادة بالدم.. هل انتهيتم منه؟

-لن تكون النتائج مُتاحة قبل الغد.. إنها إصابة فيروسية شديدة العدوى كما أعتقد، وأنا لا أدري كيف أُصيبَ بها، ولا أي فيروس يُسبب شيئًا كهذا بهذه السرعة.. إنني بانتظارك لأنني توقعت أن

تُساعدينا في الأمر.. إن الفيروسات هي مجال تخصصك.

قالت وهى تهز رأسها والألم ظاهرٌ على وجهها:

-بالتأكيد يسعدني أن أفعل.. لكنني مشوشة قليلاً.. إنه أفضل تلاميذي، ولهذا أعجز عن التفكير..

هز رأسه متفهّمًا وتمتم:

-أتفهَّم هذا بالطبع.. لكن يجب أن نعلم في أسرع وقت ما به.. لا أظن أنه سيظل على قيد الحياة حتى الصباح لو لم نبدأ علاجه.. لقد ملأت الفقاعات والتقرحات جسده، وهناك خلل في الوصلات العصبية بالنخاع الشوكي قد تصيبه بالعمى والشلل.. إنه مازال واعيًا لدرجة ما، لكنه لا يستطيع الكلام.. وأعتقد أنه لن يظل حيًّا حتى الصباح.

بدت متألمة للغاية، وأخرجت منديلاً من حقيبتها لتمسح به دموعًا وهمية.. ثم قالت باكية:

-لا أُصدق أن هذا يحدث.. من فضلك يا دكتور "فهمي" أُريد أن أراه وأحدثه.. ربما تكون هذه آخر مرة.. دعني أراه من فضلك..

أسرع يُجيب بتعاطفٍ حقيقي:

-بالطبع يا دكتورة.. هذا حقك بالطبع.. لكن عليك أن تخضعي للتعقيم أولاً..

***



من خلف قناعها الواقي نظرت إليه.. بدا في غيبوبة كاملة إلا أن حركةً واهنةً في عيونه المنتفخة المُحاطة بالفقاقيع المائية أنبأتها أنهُ متيقظ.. تطلعتْ إلى جسده المنتفخ المليء بالتقرحات والمحاليل الموصولة بأوردته، والمكتظّة بالعقاقير التي تحارب في معركة خاسرة لإبقائه حيًّا دون جدوى.

لم تشعر بشفقة ما نحوه.. بل شعرت أن آلامه التي يعانيها والحياة التي أوشك على مُغادرتها لا تضاهي آلامها التي عاشتها منذ علمت الحقيقة، والتي لا تنتظر أن تُغادرها قريبًا..

الغريب أنها شعرت ببعض الراحة حين رأته هكذا.. هل شفيت روحها لرؤيتها آلامه؟

تقدمت نحوه واقتربت بفمها المغطى بالقناع الواقي من أذنه.. همست له بتشف:

-مرحبا يا "وائل".. أعلمُ أنك تسمعني.. لقد جئتُ لأراك، ولتعلم أنها المرة الأخيرة.. فلا أظن أنك سوف تحيا لأراك مرة أخرى.. فقط أردتُّ أن أخبرك أنني أعلم الحقيقة.. أعلم أنك كنت تخدعُني لكي تُنهي دراستك.. أعلم أنك لم تحبنِ يومًا.. لقد كنت تخدعني فقط.. ولأنني بلهاء فقد صدقتك.. لكن صدقني أيها الغبي.. لم يكن الأمر بحاجةٍ لأن تفعل هذا.. كنتُ لأعاونك دون كل هذا.. لكنك اخترت الطريق المؤلم..



بدت حركة خفيفة من يده وتحركت شفتيه أو اختلجت كأنما يرغب في قول شيء ما لكن حنجرته لم تطاوعه.. فأكملت بشماتة لم تتكلف إخفائها:

-لا داعي لأن تُجهد نفسك.. لم يعد هناك طاقة لديك لقول أي شيء ولا قيمة لما ترغب في قوله.. أنا هنا لأرى كيف تتعذب، ولأخبرك أنني من تسببتُ لك في هذا.. أريد أن تعلم هذا هو انتقامي منك يا حبيبي..

وأوْلتْهُ ظهرها وهي تردف:

-هل تذكُر المصلَ الذي حقنتك به قبل أسبوع.. إنه لم يكن مصلاً في الحقيقة.. كان مزيجًا مركزا من ثلاث فيروسات قوية لا أظن أنهم سيتوصلون اليها من تحاليل دمك.. وكما ترى فإنه انتقام شاعري يليق بي.. ألا توافقني في هذا؟

وتحركت نحو باب الحجرة لتخرج لكنها التفت إليه للمرة الأخيرة وقالت بقسوة:

-هذه هي الأنثى يا حبيبي.. تعطي كل شيء حين تُحب.. وحين تكره تُقدم على فعل أي شيء.. أعتقِد أن هذا هو الدرس الأخير لك، والذى لن تجد الوقت الكافي لتَعِيه لسوءِ طالعِك..



زوجة أخرى



همست إليه وهى تُحادثه بالهاتف، وعيناها لا تفارقان باب الحمام الذي دخلة زوجها ليستحم:

-لا تتعجل الأمر يا حبيبي.. لننتظر بعض الوقت.. إنها فقط بضعة أسابيع أو شهور، ثم نفعلها سويًّا!

لكن صوته وصلها غاضبًا عبر الهاتف وهو يقول:

- لا أفهم كيف تطالبينني بالصبر وألا أتعجّل؟.. الوقت يمضي، ولا أستطيع ان اتخيلك بين أحضان رجل آخر لحظة واحدة.. هذا يقتلني بشدة.. أنتِ لا تُدركين كم أعاني.

يتناهى إلى سمعها صوت زوجها بالحمام وهو يغني اغنية قديمة لا تذكر مغنيها، ممتزجًا بصوت الماء المنهمر فوق رأسه، فتقول ببعض الاطمئنان معاتبة:

-وأنتَ لا تدرك ما أشعر به في كل ا ظة أحياها معه.. لقد صرتُ أتقزز من جلدي بعد كل مرة يلمسه، بل وأظل أغسله بعدها عشرات المرات، كأنما أصابته عدوى لا شفاء منها.. أنت لا تدري كيف يكون الغثيان الذي لا يفارقني لساعات طويلة بعد كل مرة أكون معه.. لكن، ورغم كل هذا فمازال علينا أن نتحلى ببعض الصبر.. لو نفذنا الخطة الآن، فسوف تتجه كل الشكوك نحوي حينها.

-صدقيني يا حبيبتي، لن يشك أحدٌ فيك.. إنه عجوزٌ ومن الطبيعي



أن يموت في أي لحظة!

ثم تنهَّد بعدها وتهدَّج صوته وهو يُكمل راجيًا:

-افعليها من أجلي، أرجوكِ، وارحميني من هذا العذاب الذي أُحسه، حين أفكر أن احدًا غيرى يستمتع بك.

كفَّ الماء عن الانهمار في الحمام في تلك اللحظة.. كان هذا يعني أن زوجها قد أنهى استحمامه.. فغمغمت بقلق، وعيناها معلقة بمقبض باب الحمام:

-أنا مضطرة لأن أنهي المكالمة الآن.. سوف نتحدث لاحقًا.. إنه على وشك الخروج من الحمام.. وداعًا يا حبيبي.

وأنهت الاتصال بسرعة دون أن تنتظر رده، وهي تُسرع مبتعدة عن الهاتف، بعد لحظات خرج زوجها العجوز من الحمام، وهو يُجفف بالمنشفة رأسه ذات الشعيرات القليلة المصبوغة باللون الأسود..

ابتسم حين رآها وقال:

-ألن تأخذي حمامًا أنتِ الأخرى.. الماء مُنعش للغاية وسوف يروقك.

رسمت ابتسامة باهتة من طرف شفتيها وغمغمت:

-سأفعل بالتأكيد.. لكن كنت أنتظر أن تنتهي أنت أولاً.

يقترب منها ويقبل خدها فتغمض عينيها كي لا يبدو عليها النُّفور، ويصل لأنفها رائحة الصابون على جسده ويقول بصوت كالفحيح:

-كنت أتمنى أن نستحم سويًّا.. لكنك ترفضين كل مرة.

تتنهَّد وتقول بهدوء بارد:

-أخبرتُك أنني ما زلت أشعر بالخجل.. حتمًا سيحدث هذا في يوم ما.

يقول ضاحكًا، فيظهر طاقم الأسنان الصناعي النضيد الذي يستعمله:

-أتخجلين من زوجك؟.. إنني زوجك يا حبيبتي.. حلالك!

تشعر بالحمض وهو يتصاعد من معدتها نحو حلقها كما يحدث كثيرًا كلما كان معها، فتنهض مُبتعدة عنه كي تنهى هذا الجدل الذي يسقمها، وتقول:

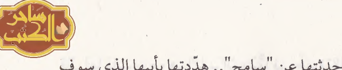
-بالتأكيد يا "عبدالتواب".. أعلم أنك زوجي وحلالي، لكني رغم هذا مازلت أخجل، إن هذا من طبعي.

وتتجه نحو الحمام.. تدخله وتغلق خلفها الباب جيدًا.. صارت تفعل هذا مُذ فاجأها أول يوم وهي في الحمام لتغتسل.. أخرجته بجهد حينها، ومُذ ذلك اليوم صارت تحرص على أن تغلقه في كل مرة خلفها جيدًا.

أسندت ظهرها للباب المُغلق وبدأت في البكاء.. كان هذا هو طقسها المعتاد بعد كل مرة تُضاجَع فيها مع زوجها.. تشعر أنها تبيعُ جسدها له.. بل تشعر أنها صارت عاهرة ولا فرق بينها وبين المُومسات اللواتي تسمع عنهن.. هنّ يبعن أجسادهن لمن يدفع وهى باعت لجسدها لمن دفع فيها.. ليس معنى أنه تزوجها بوثيقة الزواج وشهادة الشهود، أنه لا يغتصبها في كل مرة!!

كم لعنت تلك اللحظة التي ضعفت فيها ووافقت.. حدثوها كثيرًا عن الفقر الذي سوف يزول.. بشَّروها بالمال الوفير الذي سينساب بين يديها.. وأخبروها عن الحياة الرغدة التي بانتظارها.. وعن العمر القصير لزوجها والثراء القادم من بعده.. لقد تجاوز العجوز السبعين، وصارت له قدم في الدنيا وأخرى في الآخرة، فلماذا لا تصبر قليلاً؟!

تمسح دموعها بيدها وتجلس على مقعدة الحمام وتهيم في أفكارها.. كانت تحب "سامح".. ابن الجيران الذي يكبرها بعام واحد.. كان من عائلة فقيرة لا تختلف عن أهلها في فقرهم.. أنهى الدبلوم قبلها بعام، وخرج ليعمل في أحد المصانع بأجر لا يكفي سجائره.. لا شقة يملكها ليتزوج، ولا أب مستعدّ للمساعدة في تكاليف الزواج، بل وكانت الخدمة العسكرية بالجيش بانتظاره بعد عامين من الآن.. فأي مستقبلٍ مشرقٍ لحبهما إذا كان هذا هو واقعهما؟!



لطمتها أمها حين حدثتها عن "سامح".. هدّدتها بأبيها الذي سوف يقتلها إن علم شيئًا كهذا.. صرخت فيها بغضب وهي تجذبها من شعرها:

-أي "سامح" هذا أيتها الحمقاء الذي تفكرين به.. هل تنوين أن تقضي عمرك كله في الفقر والعوَز كما عاشت أمك.. هل يعجبك حالنا حتى ترغبين أن تعيشي في حالٍ مثله عمركِ كله.. انسي هذا فلن أسمح به ما حَييت.. هل فهمتِ؟.. لا أريد أن أسمع حرفًا واحدًا في هذا الأمر مرة أخرى.

كان الأمر يعني لها الاستسلام لقدَرها.. سوف تنتظر أول عريس يملك مقومات الزواج الحقيقية لتتزوجه.. أدركت يومها في مرارةٍ أن الحب صار ترفًا لا يقدر عليه إلا من يملك النقود..

كانت الخيارات التي أمامها قليلة.. عريسٌ يمتلك الوظيفة والشقة.. أو أحد الخليجيين كزوجة ثالثة أو رابعة له، مع وعدٍ بالحياة الكريمة، والتي تدرك من عشرات القصص التي حدثت لبنات تعرفهن في حارتها أنها وعودٌ زائفة، وأنهن يذهبن إلى بلاد أزواجهن ليصرن أقل من الخدم أحيانًا حتى يمل الزوج مْنهن، فيرسلهن إلي اهلهن ثانية مطلقاتٍ مكسوراتٍ ذليلات!

كان الخيار الثالث هو اقتراح سامح.. حبيبها الذي أدرك هو الآخر إن ارتباطها به مستحيل، إلا لو حدثت معجزة في زمن غادرته المعجزات منذ قرون..

قال لها ذات يوم وهما يسيران سويًا في حديقة الأورمان بعيدًا عن الأعين:

-هناك حل.. لكنه يحتاج منكِ إلى الشجاعة والتضحية.

توقفت مكانها وتطلعت لوجهة بلهفة صائحة:

-أخبرني بالله عليك أي حل يجعلنا معًا وسأفعله بلا تفكير. أتريدنا أن نهرب؟

لقد توقعت أن يطلب منها أن يهربا سويًا ويتزوجا في مكان بعيد.. فكرت في هذا من قبل، وقررت أن تقبله لو طلب.. إلا إنه كان يفكر في امر آخر:

-كلا.. هذا ليس حلاً.. الحل برأيي أن تتزوجي أحدهم في البداية!

بدت كلماته صادمة عجيبة.. وكان هذا آخر ما تتوقعه.. هل يطلب منها الزواج بآخر؟

قالت بعيون جاحظة من الذهول:

-أنت لا تعني ما تقوله يا سامح، وتمزح.. أليس كذلك؟

إلا أنه بدا جادًا جدًا.. رأت هذا في عينيه.. بينما أكمل:

-أنتِ لم تفهمي ما أقصده.. إنني لا أعني أن تتزوجي شابًا ما.. بل أفكر في أمر آخر.. أفكر أن تتزوجي من رجل عجوز على مشارف الموت.. هذا يعنى إما أن يموت فترثية ويصير زواجنا سهلا.



-وماذا لو لم يمت؟.. سأصير ملكه للأبد!؟

قالها باستنكار لكنه أسرع يُجيب:

-لنعجل نحن بموته لو حدث هذا، ونتزوّج بعدها.

كانت الرجفة عنيفة في جسدها حين سمعت هذا منه، حتى أن يديها انتفضت في كفه.. وقالت بصوتٍ مخنوق:

-هل تعني أن نقتله؟..

ارتسمت ابتسامة لا مبالية على وجهه، وأجاب بلهجة خاصة وهو يغمز بعينية لها:

-ولماذا تسميها قتلاً.. إننا لن نفعل أي شيء إلا التعجيل بقضاء الله له، ثم نصير أغنياء بعد ذلك، وبعدها نتزوج ونظل سويًّا طوال العمر في ثراءٍ وسعادة.

لم توافقه واعترضت كثيرًا على اقتراحه، إلا أنه استمر في إقناعها حتى وجدت نفسها في النهاية توافقه على اقتراحه الشيطاني، دون أن تُفكر في أنه يدفعها لارتكاب جريمة بشعة.. لكنه كما يبدو قد نسى أمرًا مهمًا.. فكرت وسألته:

-لكن أين لى بمثل هذا العريس العجوز الثري؟

لمعت عيناه بظفر، مجيبًا:

-لديّ العريس الذي يمتلك كل ما نرغب فيه أنا وأنت.. إنه ثريّ



عجوزٌ هاجر أبناؤه للخارج، ويعيش الآن بمفرده، لقد علمتُ أنه يبحث عن زوجة ما غير زوجاته اللائي متْنَ قبله.

رمقته بحيرة وتردد قبل أن تحسم أمرها في النهاية بعد إلحاحٍ ووعود:

-أنا موافقة!!

ثم ندمت بعدها على موافقتها، لكن الأمور سارت مسرعة دون أن تشعر.. جاء "عبدالتواب"، الرجل العجوز، لأبيها وأعطاه مهرًا كبيرًا أبهر أبيها.. وكم كانت فرحة أمها حين اخبرها "عبدالتواب" أنه لا يرغب في أن يجهزها أباها بأي شيء.. سوف يأخذها كما هي بحقيبة ملابسها التي سوف يشتريها لها بالطبع!!

تمّ الأمر في شهر تقريبًا لتجد نفسها زوجةً لرجل في عمر جدها لو كان مازال حيًّا..

وأدركت متأخرة أن الأمور لا تجري هكذا.. فلا هي بقادرة على تحمّل رجل كهذا، بخشونته وملامحه المتغضنة المترهلة، وعجزه الشنيع، الذي لم تنجح الأدوية والمنشطات التي يبتلعها في تحسين قدراته كثيرًا.. ولا هي قادرة أن تقوم بالتخلص منه، كما قررت من قبل مع "سامح"..

صار الأمر عبثيًّا مجنونًا، وكانت في حاجة لمعجزة ما.



وفي تلك اللحظة أتاها صوته عبر الـ ـاب:

-لماذا تأخرتِ كل هذا يا حبيبتي؟..

أجابت وهى تنفض الأفكار عن ذهنها، وتخلع ملابسها:

-إنني على وشك الانتهاء.. لن أتأخر.

***

وككل مرة، يصرخ "سامح" عبر الهاتف:

-لتفعلي هذا اليوم.. هل تفهمين.. اليوم!!

لتعود وتشعر بالعجز.. فتقول بوَهَنٍ بين بكائها:

-حاولت بالأمس ولم أقدر.. صدقني لم أستطعْ فعلها.

لكنه واصل الصراخ الغاضب:

-لا أفهم ما الذي لا تقدرين عليه.. لست أطلب منكِ ذبحه أو خنقه.. كل ما أريده منك شيئًا بسيطًا للغاية.. ضعي الأقراص التي أعطيتك إياها في الشاي ودعيه يشربه.. ساعة واحدة بعدها وينتهي الأمر.

تعلم أن الكلام سهل.. لكن التنفيذ هو الصعب.. مازالت عاجزة على تخيل أن تقتل أحدًا ما.. لكن سامح يصر.. فتقول بتوتر:

-وماذا ستفعل به تلك الأقراص.. هل ستُسمّمه؟..



يهدأ صوته ويحاول أن يكون ليِّنًا معها:

-كلا بالطبع.. إنها منشطات جنسية فقط.. لكن قلبة الضعيف لن يحتملها، لذا سيموت.. الأمر لا شبهة فيه، ولن يُثير الشكوك.. وحتى لو شرَّحوا جثته بعدها فلن يجدوا شيئًا غير آثار تلك المُنشطات التي لن يستنكر أحدٌ أنه يستعملها.

ويصمت منتظرًا أن تقول شيئًا ما إلا أنها تلتزم الصمت.. يشعر بترددها فيقول ضاغطًا على أعصابها:

-حبيبتي.. سوف تفعلين هذا اليوم.. لقد سئمت الأمر تمامًا.. افعليه من أجلنا.. أم تراك قد أحببتِه وراقتكِ الحياة معه.

وجدت بكائها يزداد دون تحكم منها.. وأجابت بألم:

-أعيش مع مَن يا أحمق؟.. إنني أتمنى الموت وأنا بجواره فكيف أُفكر في العيش معه؟!

-ولماذا تموتين وأنتِ الشابة الجميلة.. ليموت هو لتعيشي أنتِ وأنا.. لن يخسر هو كثيرًا بموته.. لقد استمتع بالدنيا بما يكفي.. أما نحن فما زال أمامنا الكثير في هذا العالم كي نراه ونعيشه.

لاذتْ بالصمت مرة أخرى مرتبكةً لا تدري ما عليها أن تفعله أو ماذا تقول.. وهنا شعر هو أن عليه أنْ يُواصل ضغطه على أعصابها أكثر، فقال بغضبٍ مصطنع:

-استمعي إليَّ جيدًا.. هذه هي فرصتك الأخيرة.. لو لم تفعليها



اليوم فلا تنتظري أن تريني ثانية أو أن أحدثك مرة أخرى.. هل تفهمين؟.. ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي تسمعين فيها صوتي.. إنني لا أمزح في هذا.

بدت يائسةً بائسةً وهي تغمغم:

-أرجوك لا تقل هذا.. لن أحتمل هذا أبدًا.

-إذًا لتقومي بما اتفقنا عليه!

***

-تناولي هذه يا حبيبتي، سوف تعجبكِ.

قالها زوجها "عبدالتواب" وهو يقدم لها قطعة من اللحم المشوي الذي طلبه.. لم تكن جائعة بل ولم يكن لديها أي شهية للحياة نفسها، لكنها رغم هذا تناولتها منه بابتسامة بذلت الكثير من الجهد كي تطاوعها وتظهر على ملامحها..

كانت شاردة بالرغم من أنها حرصت على أن تبدو طبيعية أمامه، كي لا يشك في أمرها.. قال لها وهو يلاحظ قميص نومها الأسود القصير الذي جعل جسدها يتوهج بداخله:

-ما كل هذا الجمال الذي أراه.. أخشى أن تحسدك عيناي.

همست وهي تقترب بوجهها من وجهه بطريقة مثيرة:

-احسدني كما تحب.. إنني ملكك!



شعر بالرغبة تلهبه حتى أنه كاد أن يختنق بقطعة اللحم التي كان يمضغها، فسعل بعنف.. وأسرعت هي لتضربه على ظهره.. بعد لحظة قفزت قطعة اللحم من فمه فالتقط أنفاسًا لاهثه وقد احتقن وجهه وأشار إلى زجاجة المياه قائلاً:

-ماء!

ناولته الماء فتجرع جرعتين، وأعاد الكوب ليدها ثانية قبل أن يبتسم وهو يقول:

-كدتُ أموت من فِتنتك..

همست وهي تنهضُ مضطربة:

-سأُعد لك كوبًا من الشاي..

جذبها من يديها نحوه وهو يقول بصوت ممتلئ بالرغبة:

-لا داعي للشاي الآن.. أريدكِ أنت!

جذبت يدها برفق من يده وهي تقول بدلال:

-كلا.. ليس الآن.. لا تتعجل حتى هي الأه. كما أُحب!

راقبَها بشَبَق وهي تتهادى نحو المطبخ بخطوات متراقصة.. وما ان اختفت بداخله حتى أخذت تلهثُ للحظات كأنما كانت تعدو في سباق.. كان قلبها يقرع صدرها بقوةٍ وعنفٍ محتجًا على ما تنوي فعله..



وبعد حين شعرت بالهدوء.. صبَّت الماء الساخن في الكوب وأفرغت فيه الأقراص الثلاثة التي أعطاها إياها "سامح"، ثم راحت تقلب بالمعلقة طويلاً حتى ذابت الأقراص تمامًا.. تذكرت أن تضيف بعض السكر كي تخفى أي طعمٍ محتمل للأقراص، قبل أن تعود به إلى زوجها..

كان يرمقها باسمًا بنظرات تقضم من جسدها قطعًا كثيرة في كل مرة.. وضعت الشاي أمامه وقالت بدلالٍ أودعت فيه كل أنوثتها وميوعتها:

-الشاي يا حبيبي.. تذوقه وأخبرني هل أعجبك؟.

لكنه لم يتمالك نفسه فجذبها نحوه.. الا أنها قاومته بدلال، وأبعدت يديه عنها وهي تقول بغضب مصطنع:

-أخبرتك ألا تتعجل.. الشاي أولاً.

تركها مرغمًا.. ثم تناول الكوب وتذوق الشاي.. لاحظ تشبعه بالسكر، فقال مستنكرًا:

-ما هذا؟.. لا يمكن أن أشربه هكذا.. لقد أفرطت في وضع السكر.

شعرت بالاضطراب خشية ألا يتناول الشاي فأدارت ظهرها له وهزَّت قدميها بحركات غاضبة وقالت:

-هل ستتركه بعد أن أعددته بيدي من أجلك.. كما تريد!



أسرع يصالحُها وأحاط كتفها بذراعة وقبلها قائلا:

-سوف اشربه ولو وضعت به السم، كل شيء إلا غضبك!

احتقن وجهها حين دوت كلمة السم في أذنها، وشعرت بأنفاسها تكاد أن تُزهق، فسعلت..

أسرعت نحو الحمام مُتحاشية أن يرى وجهها المضطرب.. لحقها قائلاً بحنان:

-ماذا بك يا حبيبتي؟..

-لا شيء..لا شيء.. إنه بعض الدوار فقط.. سأكون بخير

-ما رأيك لو نذهبُ لطبيب ما؟

-لا حاجة لهذا.. سأكون بخير كما أخبرتك.. عُد واشرب الشاي حتى أعود اليك

تركها بعد أن ربت على كتفيها.. وعادت إليه هي الأخرى بعد قليل..

وجدت كوب الشاي فارغًا.. فراحت ترمقه بترقُّب، فابتسم بهدوء وقال:

-لماذا تنظرين إليّ هكذا؟..

أسرعت تبعد عيناها عنه، وكأنها تدفع عن نفسها تهمة ما، وقالت:

-لا شيء يا حبيبي.. لقد شردت فقط.



نهض نحوها وأحاطها وبدأ يُقبلها وهمس في أُذُنها:

-الشيء الوحيد الذي يستحق أن يذهب ذهنك بعيدًا من اجله هو ما سوف أفعله بكِ الآن،

***

لم يحدث له أيّ شيء فكادت أن تُجن..

انتهى منها دون أن يبدو عليه المرض، بل وصار بعدها أكثر نشاطا مما بدأ..

راحت تتطلع إليه ببلاهة وهي لا تفهم كيف لم يمُت.. وطفا في أحشائها خوفٌ بدائيٌّ مُبهم..

لماذا لم يمت؟!!!!

-لماذا تنظرين إليّ هكذا؟..

يسألها "عبد التواب" وهو يتجرع جرعات كبيرة من عصير المانجو الذي جلبه من الثلاجة ليستعيد نشاطه..

وتجيب بكلمات مبعثرة:

-لا شيء.. إنه..إنه الإرهاق.

-ما رأيك لو نستحم الآن سويًّا؟!

ارتجفت من الفكرة فأسرعت تقول:



-ليس الآن.. خذ حمامك وسأنام أنا.. أشعر بالتعب.

ذهب للحمام.. فهرعت إلى هاتفها لتتصل ب"سامح".. أجابها فصرخت فيه:

-إنه لم يمت.

-ماذا تقولين.. هل أنتِ متأكدة من أنك وضعتِ له الحبوب كاملة في الشاي؟

-لقد أذبت الحبوب بيدي.. لكن لم يُصَب بأي شيء.. أنا خائفة ولا أفهم كيف حدث هذا؟

-ربما أخطأتِ واستبدلتِ الحبوب بأخرى؟!

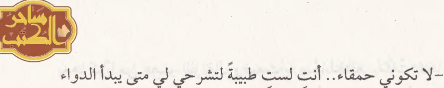
-لقد أعطيته حبوبك التي جلبتها.. أرجوك لا تزيد من ارتباكي.. لقد قمت بالأمر كما خططت تمامًا.. لكنه مازال حيًّا.. أريد تفسيرًا لهذا.. لقد صرتُ أخشاه.

أجابها بحدة وتوترها ينتقل إليه:

-وكيف لي أن أعلم لماذا لم يمت.. أنا لستُ طبيبًا لأدري ما حدث.. ربما يحتاج العقار لبعض الوقت كي يظهر مفعوله.

لم تقتنع بافتراضه فقالت مُتشككة:

-لقد مضت ساعتان منذ تناول الشاي.. لا أظن أن الدواء يحتاج لوقت أطول كي يبدأ عمله؟



-لا تكوني حمقاء.. أنتِ لستِ طبيبةً لتشرحي لي متى يبدأ الدواء في العمل.. أظن أن تلك الجرعات القاتلة من الدواء تحتاج لوقت أطول كي تقوم بعملها.. لننتظر ونرى.

لم تجد لديه الإجابات التي تنتظرها فأنهت المكالمة معه قائلة:

-ربما كنت محقًا.. من يدري؟.. سأتصل بك ثانية لو حدث شيء ما.

أغلقت الهاتف ووضعته اسفل وسادتها ثم غطّت جسدها بالغطاء متظاهرة بالنوم.. وبعد دقائق شعرت بزوجها يرقد بالفراش بجوارها ويهمس:

-هل نمتِ يا حبيبتي؟

لم تُجب، وظلت متظاهرة بالنوم وهي متكوّمة حول نفسها في وضع جنينيّ.. لكنه أحاطها بذراعيه فلاحظ، جسدها المرتجف.

-أنتِ ترتعشين.. لابد أنكِ تشعرين بالبرد.. اقتربي مني وسوف أدفئك.. هيا التصقي بي!

***

كان كابوسًا لعينًا!!

واستيقظت لتجد نفسها ترتجف بشدة وعيناها لا تكُفان عن البكاء.. رأتْ زوجها في الحلم ينظر إليها بريبةٍ وهي تحْمل في

يدها كوبًا من عصير البرتقال وضعت به سمًّا لتقتله.. مدَّتْ يدها نحوه بالكوب ليشربه لكنه ابتسمَ ابتسامة مُخيفة فبرزت أسنانًا سوداء قذرة من فمه وقال لها وهو يلتقط الكوب من يديها بأنامل كالمخالب:

-تريدين قتلي أيتها الحمقاء.. ألا تعلمين أن هذا لن يُفلح أمي، ألا ترين أنني لا أموت!

وأتى الرعب وهى ترى وجهه يتغير إلى وحش أسود بأنياب طويلة.. أرادت أن تفرّ هاربةً لكن قدميْها لم تتحرّك.. ورفع زوجها الكوب نحو فمه وقال بصوتٍ كالفحيح:

-أنظري.. سأتناوله كله أمامك، حتى تتأكدي أنني لا أموت..

شرب بعدها جرعات طويلة من العصير المسموم، ليقول بعدها بنشوة وهو يميل برأسه المخيف نحوها:

-أرأيتِ.. لم يحدث لي أي شيء.. هههههه!

راح يضحك في جنون، ثم رأت عيناه تشتعلان فتمنت لو تصرخ.. أحاطها بعدها بذراعه القوية وهو يقرب ما تبقى من العصير من فمها قائلاً:

-حان الوقت لتُجربيه أنتِ الأخرى.. هيا اشربي يا صغيرتي!

هذه المرة استطاعت أن تصرخ في وجهه برعب:

-كلا.. لا أريد أن أموت.. ابتعد عني أيها الوحش.. ابتعد!

لكنه أجبرها على ابتلاع العصير.. شعرت بالمذاق المر للشراب في حلقها.. ورغمًا عنها راحت تتجرع العصير كله.

ثم عقب قائلاً بقسوة:

-ستموتين الآن أيتها الخائنة.. ستموتين وأعيش أنا!

حينها شعرت بتقلُّصات مُخيفة تُمزق أحشائها.. أرادت أن تصرخ طلبًا للنجدة فلم تستطع.. ثم فتح فمه ليتضخم، ويصير فجوة سوداء هائلة وهو يقول:

-سوف آكلك الآن، لأُريحك من العذاب.

هنا أفلتت من فمها صرخة حقيقية فأفاقت..

وظلت تنتفض في الفراش باكية.. وبعد نصف الساعة نهضت من مكانها.. من حُسن حظها أن زوجها ليس هناك.. لا تدري ماذا سيحدث لو فتحت عيناها مستيقظة من الكابوس لتراه بجوارها يُحدق في وجهها.. كانت لتموت رعبًا لو أن هذا قد حدث..

صارت تشعر بالرعب من زوجها.. بدأت تشعر أنه تمامًا كما رأته في الحلم؛ وحشٌ مخيفٌ لا يموت.. كانت تشعر بالتيه وتتمنى لو أن هناك من يحتضنُها الآن ويبثُّها أمانًا تفتقده.. تذكرت "سامح" فهرعت نحو الهاتف لتُحدثه.. وطالت الرنات والترقب المميت



قبل أن يرد عليها:

-لم يحدث له أي شيء.. أليس كذلك؟!!

-استيقظت فلم جده بجواري.. لابد أنه قد ذهب للقهوة.

لاحظ ارتجاف صوتها فسألها:

-ماذا بصوتك؟

وجدت نفسها تبكي وتصيح بهياج:

-إنني خائفة يا "سامح".. بل مرعوبة.. لا أدري ماذا أفعل.. لقد صرتُ أُفكر في الهرب لأي مكان بعيد عنه، لا تتركني معه بمفردي.

أراد أن يُهدئها فقال:

-ماذا تقولين يا حبيبتي.. أنا بجانبك و..

لم تتمالك نفسها فقاطعته ثائرة:

-لست بجانبي، ولا أحد بجانبي.. إنني بمفردي أُبَدِّد عمري مع رجل في عمر جدي، ينتهكني طوال الوقت ويمتص شبابي في كل لحظة، وحين أردت أن أقتله لم يمت.. و

ثم انهارت باكية في ثورة، فانتظر صامتًا أن تنتهي من نحيبِها، لكنها واصلت ثورتها عليه قائلة:

-أنتَ من تسبب في كل هذا.. أنتَ السبب في كل ما أُعانيه.. لقد فعلتُ كل هذا لأنني أحبك.

وعاد بكاءها ليرتفع.. فراح "سامح" ينتقى كلماته كي لا تثور ثانية، وقال ببطءٍ:

-وأنا أحبك، وأعلمُ مقدار ما تُعانين، وأتمنى أن تنتهي معاناتك اليوم قبل الغد.. لكني أفكر بعقلي كي لا نتورط في فعل ما طائش، فنخسر بسببه كل شيء.. لا اريد ان اقتله بطريقة عنيفة فتثور كل الشكوك علينا.. أريد أن يبدو موتة طبيعيًّا، وهذا لن يكون إلا بمساعدتك.. لهذا فالأمر كله على عاتقك.. لكني أقسم أن أُعوضك عن كل هذا حين تكونين لي ثانية.

وصمت للحظة مفكرا قبل أن يستطرد:

-والآن أرى أن تهدئي لأخبرك بما أفكر فيه.

***

-لماذا لا يعمل هذا المصباح.. هل تلف ثانية؟..

كان هذا صوت زوجها سائلاً إياها السؤال الذي تنتظره، فرفعت صوتها بالإجابة وهي تتشاغل بإعداد الغذاء له:

-لقد استبدلتُ المصباح بآخر جديدٍ لكنه لم يعمل.

وخرجت من المطبخ حاملة السكين الملوث بماء الطماطم التي تُعد بها السلطة، وقالت وهى تشير به لمفتاح الكهرباء:

-أعتقد ان الخلل في هذا المفتاح.. لقد تطايرت منه شرارات كثيرة

وبعدها انطفأ المصباح.. ربما تلامست بعض أسلاكه بالداخل وربما تحتاج لإصلاحها.

بدأ في خلع قميصه وقال:

-إذًا سوف أتصل بالكهربائي ليرى ما به.

لم ترغب في أن يتم الأمر هكذا، لذا أسرعت تقول بدلال:

-وما الداعي لهذا.. الأمر مجرد عطل بسيط.. سوف تفك المسامير ثم تُخرج المفتاح لتُعيد توصيل الأسلاك به مرة أخرى.. أعلم أنك تستطيع أن تفعلها.. أليس كذلك؟

أجاب ببساطة محاولاً أن يبدو أمامها بمنظر الواثق من نفسه:

-بالطبع يا حبيبتي.. هذا أمر بسيطٌ للغاية.. حسنًا، هيا ناوليني مفكًا صغيرًا.

انتهى من تبديل ملابسه بسرعة متحمسًا لإصلاح المفتاح، بينما أسرعت هي إلى المطبخ لتجلب له مفكًا مناسبًا، ثم عادت به إليه.. وقالت له:

-سوف أنزع القابس، لأفصل الكهرباء عن البيت كله.

وافقها ووضع المفك في أحد مسماري مفتاح الكهرباء وأخذ يفكه.

أسرعت إلى مكان القابس ونزعته؛ فأظلم البيت إلا من ضوء

كشاف المحمول الذي يحمله زوجها كي يرى ما يفعله.. مرت دقيقة فهتفت وقلبها ينتفض:

-هل انتهيت؟

-وجدت السلك مقطوعًا.. سوف أُعيد توصيله

شعرت أن اللحظة المناسبة قد حانت.. واضطربت أنفاسها قبل أن تُحرك القابس إلى مكانه لتُعيد الكهرباء متوقعة الصرخة الفزعة لزوجها الذي لابد أن تصعقه الكهرباء الآن..

لكن زوجها لم يفعل.. بل ناداها قائلاً دون أن يُعقب على عودة الإضاءة:

-تعالي لتساعديني يا حبيبتي!

شعرتْ بالفزع وكأنما صعقتها الكهرباء بدلاً منه، لكنها خطت نحوه بآليةٍ وهى تتساءل إن كانت قد تأخرت في إعادة القابس لمكانه، حتى انتهى من توصيل السلك بالمفتاح ولهذا لم تصعقه الكهرباء..

-والآن خذي هذا المحمول؛ فلم أعد بحاجة لضوئه.

ومدَّ يده نحوها بالمحمول ودون أن تفكر مدَّت يدها نحوه..

أمسك بيديها فارتعدت وبدأت تنتفض في عنفٍ حين مرت الكهرباء من خلاله إليها.. كانت الالام مبرحة بصورة لا تحتمل



والعذاب لا يُطاق وابتسامة شامتة على وجهه ترتسم، دون أن يفلت يدها.

وبعد لحظات خبت الحياة من عينيها الجاحظتين فترك يدها لتسقط على الأرض بلا حراك.. قبل أن يلتقط الهاتف ويتصل بالإسعاف، وهو يرمق جثتها الهامدة بهدوء.

***

-لقد كانت حمقاء.. ظنت أنها ستنجح في التخلص مني لكنني كنت يقظًا.

قالها "عبدالتواب" وتعالى بعدها صوت قرقرة الشيشة التي يشربها.. فقال له صديقه العجوز الجالس إلى جواره بالمقهى باهتمام وشغف:

-ومتى أدركتَ أنها تنوي قتلك؟

أطلقَ سحبًا كثيفة من الدخان من فمه قبل أن يُجيب:

-منذ البداية.. سمعتها في اليوم التالي لزفافنا تتحدث إلى عشيقها في هذا.. فكان عليّ أن أفكر فيما على فعله!

قالها وأخذ نفسًا آخر من الشيشة؛ وصديقه يتطلع إليه بترقب قبل أن يسعل ويكمل:

-فكرت أن أُطلقها، لكنني رأيت أن هذا ما ترغب هي فيه.. لو



طلقتها ستحصل على كل الأثاث والمؤخر وبعدها ستتزوج حبيبها كما خطّطت، وسأكون أنا الخاسر الوحيد.. لهذا قررت ألا أفعل وألا أُشعرِها بأني قد كشفت أمرها.

شعر صديقه بالحماس فقال بإعجاب:

-يا لك من داهية!.. وماذا حدث بعدها؟

-كل شيء توقعته.. أرادت أن تدسّ لي حبوبًا ما في الشاي.. غافلتها حينها وسكبت الشاي في إناء الزهور..

وأطلق بعدها ضحكة ساخرة طويلة، تلاها سعالٌ عنيف، وهو يُكمل:

-فعلت هذا تمامًا كما نراه في الأفلام.. لن تصدق كيف كانت مذعورة وأنا أرى في عينيها حيرة بالغة، وكأنما تتساءل لماذا لم أمت.

قاطعه صديقه بسرعة وكأنما لسعته كلمة الموت قائلاً:

-بعد الشر عنك.. لا تتحدث عن الموت، فمازال العمر بأكمله أمامنا.

لم يعلق "عبدالتواب" وأكمل مبتسمًا:

-في اليوم التالي طلبت مني أن أُصلح مفتاح الكهرباء وأصرَّت أن أفعل هذا بنفسي.. هنا دبَّ الشك في نفسي فتأملت المفتاح



لأرى إن كان هناك آثار عبثٍ به.. بالفعل رأيت بعض الخدوش.. شككت أنها ربما تريد أن تصعقني بالكهرباء، وكنت محقًّا في الواقع.. تأكدت من هذا حين أعادت الكهرباء قبل أن أُتم عملي.. كانت تنتظر أن أموت صعقًا، ولم تدرك أنني احتطت للأمر فارتديت حذائي المطاطي الذي جنَّبني الصعق.. ناديتُ عليها فجاءت مرتبكة مُبلبلة الفكر، وكل ما فعلته هو أن أمسكت بذراعها فانتقلت الكهرباء إليها هي.

وصمت ليتمالك أنفاسه، وعاد لشرب الشيشة وصاحبه يحبس أنفاسه من الإثارة ويقول:

– ثم ماتت بعدها!

–لم أترك يدها حتى تأكدت من هذا.. اتصلت بعدها بالإسعاف والشرطة لأخبرهم أنني عدتُّ للمنزل لأجدها ملقاة بجوار مفتاح الكهرباء جثة هامدة.. بالطبع لم يشك أحدٌ في الزوج العجوز الضعيف الذي أخذ في الصراخ والعويل على زوجته الشابة..

وأطلق الاثنان معًا ضحكة عالية قبل أن يميل صديقه نحوه قائلاً وهو يتناول خرطوم الشيشة من يده:

–وماذا تنوي أن تفعل الآن؟؟

–سأبحثُ عن زوجة شابة أخرى.. ألا ترى أنني ما زلتُ أتمتَّع بالصحة وأستحقُّ زوجةً أخرى؟!



لن تصدقوني



أعلمُ أنكم لن تصدقوني!

في الواقع أنا نفسي لن أُصدق حرفًا من هذا لو حكاه أحد لي؛ أشعر أحيانًا أنني قد فقدتُ عقلي، وصرتُ أهذي، وأن ما حدث لا يعدو أن يكون كابوسًا ثقيلاً حلمت به، أو هذيانَ عقل يتناول المخدرات.

أرى ألا تضيعوا وقتكم الثمين في الاستماع إلـي، ولتكتبوا تقاريركم كما ترغبون.. لتكتبوا فيها أنني لستُ مجنونًا، وأنني أدَّعي هذا لأهرب من حبل المشنقة الذي ينتظرني.. أخبروهم أنني سليمٌ تمامًا، وأن عقلي صحيحٌ كالجرس.. اكتبوا هذا براحة ضمير حقيقية، لأنني بالفعل كذلك!

لم أُعانِ من قبل من مرض عقليّ، ولا أظن أنني سأُعاني منه يومًا ما.. فأنا الآن بكامل قوايَ العقلية كما كنتُ دائمًا..

لكن لماذا أرى في عينيك يا سيدي الرغبةَ في أن أقُص عليك ما حدث منذ البداية!

إنه الفضول.. أليس كذلك؟!

أنت تريد أن تعلم ما القصة التي يختلقها هذا المجرم، والمتهم بجريمة قتل بشعة كي يُفلت من العقاب.. لكن ماذا بيدك أن تفعل لو أخبرتك أنني لن أقُص مرة أخرى ما حدث لأي أحد؟.. ما



رأيك لو تركتك هكذا بفضولك دون أن أُشبِعه؟..

ستنزعج قليلاً؟..

لا يهمني هذا في الواقع ولا آبَهُ.. هذا شأنك، مثلما هو شأني أن أواجه موقفي هذا بمفردي..

لكنني لن أفعل هذا.. سوف أُخبركم بما حدث.. ليس لأُنني أحلم بان تصدقوني.. فهذا كما قلت لن يكون، ولكن لأني أُعاني من الملل الكئيب من هذا المكان، ولا بأس من تمْضية بعض الوقت بصورة مختلفة.. سأقصُّ عليكم، وكما أخبرتكم لا أنتظر أن تستمعوا إليّ مصدقين.. فقط أرجوا ألا يقاطعني أحد..

هل اتفقنا؟..

***

أُقيم في إحدى قرى محافظة القليوبية.. وأعمل في المدينة التي تنتمي إليها القرية كسكرتير في إحدى المدارس الثانوية.. حياةٌ رتيبةٌ أحياها مع زوجة مثل ملايين الزوجات التي لا تكفّ عن الشكوى من الحياة ومنِّي ومن الأولاد ومن الحظ والبخْت، وكل الامور الأخرى التي ابتلاها القدر بها حين قَبِلت الزواج برجلٍ مثلي.

في الواقع ما يجمعُني بها هو حاجتي لمن يرعى الأطفال، والحاجة

للأنثى من حين بعيدٍ لآخر، وأظن أن ما يجمعُها بي هو الأمر نفسه.. حياةٌ مألوفة في كل مكان حولك!

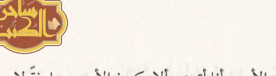
كانت وسيلة المواصلات الوحيدة المُتاحة للوصول إلى عملي هي تلك السيارات نصف النقل اللَّعينة، والتي لا تصلح إلا لنقل الحيوانات.. أستقلُّها من مدخل القرية كل صباح وأعود بها بعد انتهاء العمل.. ومضت أعوامًا طويلة في هذا الروتين الكئيب دون جديد.

لكن كل هذا تغير حين ظهرت "أسماء"!

صعدتْ إلى السيارة من المحطة التالية لقريتي.. وكان هناك مكانًا شاغرًا في المقعد المُواجهة لي فاتجهت إليه ببساطة..

في البداية كانت هناك نظرة عفوية نحوها مثلما أفعل مع كل امرأة أراها لأول مرة.. ثم تحوَّلت النظرة العفوية إلى نظرات متلاحقة لا تتوقف.. كانت بيضاء؛ وأنا أعشق البيضاوات.. كانت بضَّة ممتلئة قليلاً؛ وأنا أهوى تلك المرأة البضَّة الناعمة.. كانت عيناها المكحلتان بطبقات كثيفة من الكحل الأسود تبُوحان بالكثير من الأسرار الغامضة التي تنتظر من يُنقب عنها كي يكشفها..

هل شعر أحدٌ بنظراتي لها؟.. لم أُبالِ في الواقع.. فقط أردت أن ألفت انتباها إلي، وأظن أنني فشلت في تلك المرة..



بعدها ترقَّبت أن يتكرر الأمر وأنا أتمنى ألا يكون الأمر مصادفةً لا تكرر.. لكن أسبوعًا مضى قبل أن أراها مرة جديدة.. ثم مرت عدة أيام بعدها قبل أن تكون هناك المرة الثالثة.. ثم الرابعة والخامسة.. ثم بدأت أشعر أنها قد لاحظَت وجودي عبر نظراتي التي أُلاحقها بها بإلحاح.. نعم كان هناك شبحُ ابتسامة ما في المرة الثالثة حين تلاقت عينانا للحظة واحدة لا أكثر

لكن كل هذا لم يكن كافيًا..

يجب أن أتحدث معها!!

قررت أن أتْبعها في المرة القادمة إلى أن أعلم أين تعمل، فربما نجحت في التعرف عليها.. لكن هذه المرة كان عليّ أن أنتظر تسعة أيام كاملة قبل أن يُتاح لي رؤيتها مرة أخرى..

عانيت كثيرًا من الانتظار في هذه الأيام، فصرت أكثر إصرارًا على التعرف عليها هذه المرة.. ولهذا ما أن وصلت السيارة إلى المدينة، وهبطنا منها، حتى رُحت أسير خلفها، من بعيد حتى دخلت مبنى عتيق عليه يافطة قديمة تُشير إلى أنه مكتب السجل المدني للمدينة الصغيرة..

دخلت المبنى خلفها، ورحت أنظر في كل حجرات المكان باحثًا بعيني عنها.

وجدتها في إحدى الحجرات تتحدث مع زميلة أخرى، دخلت

عليهما متعللاً بالسؤال عن كيفية الحصول على شهادات ميلاد جديدة للأولاد.. في البداية كانت هناك تلك النظرة التي امتزجت فيها الدهشة والاضطراب.. بعدها ارتسمت على شفتيها ابتسامة مثيرة، وأجابت قبل أن تُجيبني زميلتها التي التفتت إليّ بتثاقل وملل:

-مرحبًا يا أستاذ ماجد.. تفضل بالجلوس!

حان نصيبي هذه المرة في الدهشة.. كيف عرفت اسمي؟.. لاحظت عيون زميلتها التي تتأملني وتفحصني في فضول، فحاولت أن أبدو طبيعيًّا في رد فعلي..

لقد تظاهرت بأنها تعرفني فلأفعل المثل إذًا.

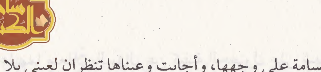
جلست على المقعد الملاصق لمكتبها العتيق، وتبادلنا حديثًا حاولنا أن يبدو طبيعيًّا عن حالها وحال الأولاد.. بعدها أشارت إليّ أن أتبعُها لتساعدني في استخراج شهادات الميلاد التي أُريدها.. تبعتها وفي الردهة الواسعة بين حجرات المكان التفتت إليّ وتوقفت أمامي وقالت باسمةً:

-ألا ترى أن هذا كان جريئًا للغاية؟..

-أردتُّ أن أتعرَّف عليك، فلم يكن أمامي وسيلة أخرى!

-وهل من الصواب أن تتعرف عليّ في مكان عملي؟

-لم أعرف طريقة أخرى كما أخبرتك.. أعتذر لو ضايقك هذا.



اتسعت الابتسامة على وجهها، وأجابت وعيناها تنظران لعيني بلا خجل:

-وهل رأيتَ الضيقَ في وجهي؟!.. ما رأيك لو تحدثنا عبر التليفون، فالمكان هنا مزدحمٌ والعيونُ كثيرة.. أعطني رقم هاتفك وسأحدثك حين يُتاح لي الوقت المناسب.

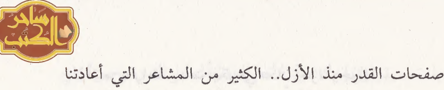
لم أعهد من قبل امرأة جريئة كهذه، لكنها الجرأة التي خدرت مشاعري وأذابت قلبي.. فلم أُفكر في أنها قد تكون امرأةً لعوبًا مثلاً.

أمليت عليها رقمي؛ وأنا لا أُصدق أن هذا يحدث!

بعدها بدانا نتحدث تلفونيًا كل يوم.. أحيانًا لدقائق قليلة، وأحيانًا أخرى قد يطول الحديث لساعات طوال..

كانت هي الأخرى متزوجة، يعمل زوجها مهندسًا باحدى دول الخليج الصغيرة، ولا تستطيع السفر معه بسبب طبيعة عمله كما يزعم، أو بسبب وجود أخرى معه كما تظن هي.. لديها طفلان؛ أكبرهما في الرابعة من عمره، والثانى قد يبلغ عامًا ونصف العام.. كانت تعيش من قبل بالقاهرة، واضطرت للانتقال لبيت عائلة زوجها ببلدته، لأنه لا يطمئن أن تكون بمفردها في القاهرة في تلك الايام العصيبة التي تَلَت الثورة..

سارت الأمور بعدها بينا نحو مسارها المعتاد المرسوم على



صفحات القدر منذ الأزل.. الكثير من المشاعر التي أعادتنا لمراهقة فارقناها منذ أعوامٍ طوال.. وفى النهاية اعترفنا بالحب لبعضنا البعض..

تعدَّدت لقاءاتنا في بعض الأماكن البعيدة بالقاهرة كي لا يرانا أحدٌ ما.. كنا في سعادة لكن هذا لم يكن كافيًا.. لقد رغبت فيها وتمنيتها.. وبعد ممانعةٍ منها- لم تكن قوية وصادقةً في الواقع- وافقت..

كانت المشكلة في إيجاد المكان المناسب.. نُريد مكانًا بعيدًا يُؤمن لنا السرية ويُبعدنا عن العيون.

فكَّرت في طلب المساعدة من بعض الأصدقاء، لكنني تراجعت بسرعة.. فهناك أشياء يحرص المرء على الحفاظ عليها، وأهمها كيف ينظر الآخرون إلينا.. أزعم أنني كنت أحظى بالكثير من الثقة والاحترام من الجميع، ولهذا خشيت أن تهتزّ هذه الصورة المُحببة لو طلبت المساعدة في أمر كهذا.

فكرت في استئجار حجرة بأحد الفنادق أو اللوكاندات الرديئة، لكنى خشيت أن يُؤدي الأمر لفضيحةٍ لو اكتُشِف الأمر.

ثم تذكرتُ مكانًا ما.

وحينها ظننت أنه المكان المناسب!

***



-لا أشعر بالراحة.. دعنا نُفكر في مكانٍ آخر، أرجوك!!.

قالتها بقلقٍ.. إلا أنني كنتُ متحمسًا، ومُصرًا:

-لكن المكان آمنٌ تمامًا.. كما أنه مهجورٌ، وسيتيح لنا الخصوصية التي ننشدها.

-ها أنت تذكر أنه مهجورٌ منذ زمن بعيد.. ماذا لو كان يحوي ثعابينَ أو فئرانًا.. سأموت رعبًا حينها.

-وأنا سأموتُ بجوارك حينها حزنًا عليك.

أعجبها تعليقه، فقالت في عبثٍ:

-ستكون فضيحة حينها.. أتتخيل هذا؟.. يدخل أحدهم المكان ليجدنا سويًّا ميتين متجاورين.

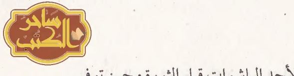
-وهل يهم الأمر حينها وقد متنا سويًّا؟

-مازلت أرى أن نُفكر في مكانٍ آخر..

شعرتُ حينها من نبرة صوتها المترددة ببوادر الموافقة.. كان عليّ أن أتقدم بلا هوادة، وأن أدُك معاقل مقاومتها بلا رحمة، فقلت:

-ثقي بي يا حبيبتي، إن المكان رائعٌ بالفعل، ومناسبٌ لأسباب عدة..

أولاً إنه موجودٌ في مكانٍ بعيدٍ تمامًا عن العمران على أطراف



بلدتنا.. يقولون إنه كان بيتا لأحد الباشوات قبل الثورة وحين توفي لم يكن هناك من يرثه؛ فتُرك هكذا دون أن يهتم به أحد..

ثانيًا.. مازلت أذكر انني دخلته قبل سنوات وأنا على مشارف الشباب مع بعض الأصدقاء.. وكان حينها خاليًا تمامًا من الأثاث، ولم يكن به ما يُخيف.

ثالثا.. يمكننا أن نمكُث فيه كما نشاء، دون أن نتوقع أن يُفاجئنا فيه أحد.. فلا أحد قد يدخله الآن

رابعًا..أنا أريد هذا لأنني أحبك..

مرة أخرى قالت بدلالٍ ومقاومتها تضعف:

-يبدو أنني سأقبل.. إن هذا فقط لأنني أحبك.

رانَ الصمتُ للحظات بيننا.. تخيلتُها فيها بين ذراعى.. إلا أنها أخرجتنى بسرعةٍ من أفكاري حين قالت:

– وماذا عن الأتربة والغبار.. لابد أن المكان متسخٌ وممتلئٌ الآن بأطنانٍ من الاتربة والمُخلفات..

كانت الرغبة نحوها مشتعلة بداخلي ومستعرة.. كنت مُستعدًّا لأن أفعل المستحيل للحصول عليها.. قلتُ وأنا أتخيل جسدها البضّ يتراقص امامى في قميص نومٍ خفيف:

-لا تقلقي من أي شيء.. فقط وافقي على الأمر، وسأقومُ غدًا



بالتسلُّل إليه، وتنظيف مكانٍ ما بداخله ليصير مناسبًا لنا.

-وكيف سنصل إليه لو وافقت:

-يمكنني أن أستعير سيارة أحد أصدقائي..

بدأت تلين أكثر وأكثر.. فتنهَّدت باستسلام:

-يبدو إنك فكرت في الأمر طويلاً.. إنك صرت كالمجنون فيما تقرره..

ثم اعقبتها بضحكة متوترة وأكملت:

-لكنني أُوافق؛ لأنني أحب جنونك.

قلت لها حينها بانتصارٍ؛ وصورتُها تتضخم في خيالى وهي بين ذراعي:

-أعدُك ألا تندمي أبدًا.

***

وسار الأمر كما خطّطت، وبعد أيام ثلاث؛ جلستْ جواري في سيارة عتيقة استعرْتها من صديق لي، والأحلام الوردية تُظللنا في طريقنا إلى ذلك البيت المهجور.. بدا الأمر في ذلك الحين رائعًا مثاليًّا.. سِرْنا في ذلك الطريق التّرابيّ حتى لاح البيت من بعيد.. كانت واجهته كئيبة بطلائه الأبيض الذي تقشَّر أغلبه، مُخلفًا فجوات كالحة قميئة.. التفتتْ نحوى بعينين مذعورتين وهمست



بصوت مرتجف:

-هذا البيت يبدو مخيفًا.. هل أنت متأكد أنه آمن؟

أجبتها وأنا أدورُ بالسيارة حول قطعة بارزة في الطريق لأتحاشى المرور من فوقها:

-نعم يا حبيبتي.. أعلم كيف يبدو كئيبًا من الخارج.. لكن الداخل شيءٌ آخر.

-لا أعلم لماذا انقبض قلبي حين رأيته.. شعرت أنني لا أحب هذا البيت.

-لا تبالغي في مخاوفك، إنه مجرد بيتٍ قديم، ولن نجد العفاريت بانتظارنا.

-أنت تُرعبني هكذا.. هذا ليس طريفًا!

قالتها بصوت مُرتجف ولهجة مُعاتبة، فأطلقت ضحكة ساخرة صاخبةً لأبدد بعض توترها وهمست:

-وهل تظنين أن هناك ما قد يمسكِ وأنتِ معي؟

مطّت شفتيها بتوتر ولم تتكلم، فقط راحت بعينيها تتفحص البيت الذي صرنا أمام بابه المهشم النصف مفتوح.

أخفيت السيارة بين أجمة من الأشجار، ثم حملت حقيبة جلدية وضعت داخلها بعض الطعام والعصائر، ومنرشًا نظيفًا، وتحركنا



نحو باب البيت، وأنا ألْحظ النظرة المتجمدة التي ترمق بها البيت.. كان هناك خوفٌ حقيقي في عينيها..

أوعزْت الأمر إلى قلقها الطبيعي لما نحن مقبلون عليه.. فقلت لها مشجعًا:

-هل أنتِ بخير؟

-فقط بعض التوتر.. إنها المرة الأولى!

-إذن دعينا لا نُضيع لحظة ولندخل.

اتجهت إلى الباب الخشبي العتيق ودفعته بقوة.. أصدر صريرًا عاليًا وهو يتحرك بصعوبة ثم دخلنا.

كان أثر النهار بالداخل ضعيفًا إلى حدٍّ كبير.. وربما هذا لأن أغلب نوافذه كانت مغلقة وما هو مفتوح منها لا يسمح بدخول القدر الكافي من الضوء.

قبضتْ على ذراعي بتوتر، وهمست وعيناها تتنقلان في الردهة الواسعة الخاوية أمامنا، والتي غرقت أسفل طبقة كثيفة من الغبار:

-هذا البيت يُخيفني.. ما رأيك لو نرجع؟

شددتُّ على يديها محاولاً بثَّ الطمانينة في نفسها، وقلت هامسًا

-ليس وقد بلغنا هذا الحد!

-لكن المكان غير نظيف.. ألمْ تخبرني أنك نظفته بالأمس؟



أشرتُ إلى حجرة في آخر الردهة وقلت:

-لقد قمت بتنظيف حجرة واحدة فقط.. وأعدُك أن تُعجبك الحجرة.

-إذًا لنذهب اليها!

سبقتها إلى الحجرة.. فتحت بابها الخشبي وانحنيت وأنا أُشير بكلتا يدي إلي الحجرة في حركة مسرحية لأدعوها للدخول.

كانت نظيفةً بالفعل.. وعلى الأرض كانت هناك سجادة صغيرة وبعض الوسائد.. هنا سنقضي تلك الساعات القادمة البهيجة..

تنهّدت براحةٍ ولاحَت ابتسامةً على شفتيها لأول مرة، وقالت في دلال:

-لا بأس بها!

قلت بشيء من الخبث:

-ألا أستحقّ مكافأة علي هذا؟

كانت إجابتها عملية.. قبلة طويلة طبعتها على خدي.. بدأت الأمور الرائعة في البدء.. قلت لها في نشوة:

-أترغبين في تناول شيء ما في البداية؟

ابتسمت بدلال وهى تجيب:

-سأكتفي بالعصير لو كنت قد أحضرته.



أسرعتُ إلى الحقيبة البلاستيكية لأخرج منها أحد عبوات العصير الجاهزة وقدمته لها قائلاً:

-من المستحيل أن أنسى ما طلبتيه.

التقطته في رضا ورفعته إلى شفتيها وأخذت تشربه ببطء وعيناها تلتمعان بمعان كثيرة.. كان بهما الكثير من الرغبة والنشوة واللهفة والانتظار..

أخرجت أحد شطائر اللحم البارد، وتناولتها في غير عجلة.. لم أكن جائعًا في الواقع، لكن لا بأس ببعض التمهل كي يكون الأمر مثاليًا..

تحدثنا سويا لبعض الوقت ثم طلبت مني أن أستدير لتبدل ثيابها.. لم أشأ أن أعابثها ففعلت.. وحين انتهت سمحت لي بالنظر.

شهقت من الإثـارة.. كانت فاتنة الآن أكثر من أي وقت مضى، فرغبت في أن أحتضنها بقوة، وأن أعْتصرها بعنف في صدري..

كنت لأفعل، لولا الخطوات التي تناهت إلى سمعنا مرة واحدة.. استمرت الخطوات للحظات قبل ان تتوقف، كأن هناك من يسير على الأرضية الخشبية للسقف بالأعلى!

استحالت الرغبة البادية في أساريرها إلى فزع وخوف ونظرت إليّ بقلق وهمست:



-هل سمعتَ هذا؟ هناك أحدٌ ما بالمنزل!

أردت أن أُطمئنها، وأن أقول لها إنني لم أسمع شيئًا.. إلا أن الخطوات عادت مرة أخرى قبل أن أنطق.. هذه المرة كان الصوت واضحًا ومن المستحيل إنكاره.. فاندفعت نحو ملابسها لترتديها وهمست في رعب:

-هناك أحدٌ ما بالأعلى.. اذهب لترى من يكون وماذا يريد؟

كنت أشعر بالقلق.. تلك الخطوات الواضحة هي أقدام أحدهم بلا شك.. لكن المكان مهجورٌ كما أعلم، وبالأمس فحصته كله بالكامل، ولم أجد أثرًا لأحد قد يعيش فيه.

إذًا من هذا؟!

ازداد توتري، وأنا أفكر في عشرات الهواجس السوداء.. أتراه يكون مجرمًا اختبأ من الشرطة ها هنا، ولو كان مجرمًا هل يكون بمفرده أم يكون معه آخرون؟ وماذا لو كان مسلحًا؟

ارتجفتُ خوفًا وقلقًا..

ربما لا يكون مجرمًا.. وربما كان متشردًا يبحث عن مأوى له، ليته يكون هكذا.

جال بخاطري خاطر آخر.. أيكون أحدهم قد كشف أمرنا وجاء يستكشف المكان.. ستكون مصيبة لو كان هذا ما حدث.. فهذا



يعني الفضيحة!

تجمدتُّ في مكاني؛ لا أدري ماذا أفعل.. وأفقت على همسها، وهى تدفعني بأنامل باردة مرتعشة نحو الباب:

-ألنْ تذهب لترى ماذا يحدث بالأعلى.

كنت خائفًا.. لكنني لم أشأ أن ابدو جبانًا أمامها.. أمسكت بالسكينة الصغيرة التي جلبتها معي لتقطيع التفاح، وقلت لها بصوتٍ خذلني في أن يبدو قويًّا:

-انتظري هنا ولا تغادري مهما حدث.. سأرى ماذا هناك.

اندفعتُ للخارج، وأنا أتلفَّت حولي بقلق..

كانت الردهة خالية.. كانت الأصوات قد توقفت الآن.. خيَّم السكون الكامل على المكان بأكمله، فتصلبت لدقيقة أو أكثر، ثم تحركت بخطوات صامتة، وأنا أنظر إلى الأرضية المتربة.. كان مطبوعًا عليها آثار أقدامنا نحن فقط.. لم يكن هناك أي أثر لأقدام أخرى.

لو كان هناك من يتحرك بالأعلى فكيف دخل إذًا؟!

صعدتُّ الدرج الخشبي بخطوات مترددة.. هنا عادت الخطوات لتردد مرة أخرى وقد صارت أكثر قوة ووضوحًا.. قبضت على السكين بقوةٍ وقلبي قد فقد انتظامه فراحت ضرباته تتوالى بلا



رقيب.

في الأعلى كانت هناك ردهة ضيقة وطويلة.. وعلى جانبيها العديد من الحجرات المغلقة.. لم يكن الضوء هاهنا قويًّا كالأسفل لكن الرؤية مازلت ممكنة.. تطلعت بقلق نحو الحجرات التي مازالت محتفظة بأبوابها المغلقة السليمة رغم كل هذه السنوات.

لابد أن صاحب تلك الخطوات داخل أحد تلك الحجرات ويختبئُ فيها الآن.. لكن أيّ واحدة منها يا ترى؟

مرة أخرى فكرت في أن أهبط، وأن أُسارع بمغادرة المنزل، لكن خوفي من أن تتهمني "أسماء" بالجُبن دفعني لأن أمضي للنهاية.. سأفتح تلك الحجرات وأرى ما بها وليحدث بعدها ما يحدث!

أمسكت بمقبض الباب الأول وأدرتُه فاستجاب بلا مقاومة؛ ففتحته ببطءٍ وحذرٍ ثم دلفت إلى داخلها.. كانت فارغة تمامًا من الآثاث.. فقط الكثير من الغبار وأعشاش العنكبوت على الجدران..

التقطت انفاسي بداخلها للحظة، قبل أن أنتقل إلى الحجرة المقابلة.. فتحتها فكانت كالأولى فارغة هي الأخرى.. كانت الحجرة الثالثة مثل سابقيتها، وحين فتحت باب الحجرة الرابعة ووجدتها هي الأخرى خاوية تبدد الكثير من التوتر بداخلي وتلاشى.. وتساءلت هل كنتُ واهمًا بشأن تلك الخطوات التي سمعتها؟



أمام باب الحجرة الخامسة توقفتُ؛ وقبل أن تمتد يدي نحو المقبض سمعتُ من خلفي الخطوات ثانية وصداها يتردد في الحجرة الأولى مصحوبة بضحكة قصيرة.. انتصب الشعر في رأسي وعاد قلبي يرتجف ويضرب صدري بقوة أكثر مما مضى..

عدت مُسرعًا إلى الحجرة الأولى، وكان الباب مازال مفتوحًا كما تركته، وكانت فارغةً كما رأيتها من قبل.. انتقلت عيني نحو الأرض المُغبرة.. لا أثر فيها لأي اقدام.. هززت رأسي وأنا اتلفّت حولي بتوتر باحثًا عن العدو الخفي، وأنا أتساءل هل صرتُ أتوهم أشياء لا تحدث.. عدت مرة أخرى إلى الحجرة الخامسة وعيناي تتفحص كل الحجرات المفتوحة.. لم أرَ أحدًا فيها.

لم يبق إلا حجرة أخيرة في المواجهة.. توقفتُ أمامها لاهثًا ومترقبًا.. لو كان هناك أحدٌ ما فلابد أن يكون هاهنا.. قبضت كفي على السكين بتحفز، وامتدّت يدي الأخرى نحو الباب لتفتحه.

وهنا جرى كل شيء بسرعة!!

تعالت فجأة اصوات أبواب الحجرات التي تركتها مفتوحة وهي تغلق بصورة متتالية كأنما تغلقها أياد خفية.. ثم تعالت بعدها الخطوات بداخل كل الحجرات، ودون أن أدري فتحت باب الحجرة الأخيرة!

هنا كان الأمر مختلفًا..



الحجرة لم تكن خاوية.. في المواجهة انتصب سرير معدني ذو قوائم نحاسية.. لابد أنه يعود إلى بدايات القرن الماضي.. والأرض مغطاة بسجاد أحمر فخم، وفي منتصفها كان هناك موقد فوقه، براد نحاسي داخل سائل يغلي.. وعلى جوانب الحجرة تناثرت بعض الوسائد والطنافس.. وعلى السرير رقدت أجمل حورية رأيتُها في حياتي.. كانت ترتدي غلالة رقيقة تكشف من جسدها الأبيض البلوري أكثر مما تخفى، كانت تبتسم لي ابتسامةً تُذيب العقول.. ثم مدَّت يدها نحوي داعيةً إياي.. وكالمنوَّم مغناطيسيًّا اتجهتُ إليها دون أن أشعر.

لم أشعر بما حدث بعدها.. فقط كان هناك الكثير من النشوة واللذة.. هل هناك حلاوة في الكون مثل هذه؟.. وهل ذاق بشرٌ من قبل اللذة التي تذوقتها؟..

هل انتقلتُ للجنة فجأة، أم أنني أحلم؟

كم مضى من الوقت وأنا هاهنا؟

لا أدري..

وفجأة...

أفقتُ لأجد نفسي راقدًا على الأرض المُتربة.. لا سجاد أحمر يغطي الأرض ولا فراشًا نحاسيًّا ولا حورية شفافة كالبلور.

مترنحًا شاعرًا بالدوار العنيف يعصف بعقلي، عدتُّ أدراجي



لأسفل..

كانت هناك الكثير من التأوهات التي تعبق بالنشوة آتية من الحجرة التي تركت فيها "أسماء"..

لكن ذهني كان مشوشًا؛ ولم أفكر وقتها في معناها.. ثم وقفت أمام باب الحجرة ذاهلاً وأنا أرقب ما يحدث..

كان هناك عملاقًا أسود عاريًا جاثمًا فوق جسد "أسماء" العاري وهو يطؤُها بلا توقف؛ وهي تصرخ من شبق بلا انقطاع..

وجدت نفسي أصرُخ، فالتفتَ العملاقُ الأسود نحوي.

كان مخيفًا بعينين سوداوين دون أى بياض فيهما.. عينان كأنهما أعماقُ قبرٍ مظلم.. ابتسم لى بفم له اسنانٌ مسننة حادة!

أغمضت عيني بهلع ووعيي يتسرَّب مني..

وحين استعدتُّ وعي لم يكن هناك...

وكانت "أسماء" راقدة على الأرض على ظهرها، وهي عارية تماما.. وحين اقتربت منها كانت باردة كالثلج.. لقد كانت ميتة.. كانت عيناها مجوفتين فارغتين من مقلتيهما.. وتدلّى رأسها بجوارها بصورة عجيبة كادت أن تدفعني للضحك جنونا..

غادرتُ المنزل مهرولاً بلا هُدى حتى عثر علي بعض الفلاحين الذين أذهلهم بالتأكيد أن يرونْي فجأة أمامهم عاريًا تمامًا..



كنت أُشير بيدي نحو المنزل بإصرار ورعب وجنون، فذهب بعضهم إلى هناك واكتشفوا جثة "أسماء" ولم يعثروا على أي أحد آخر..

قصصت على الشرطة مرارًا ما حدث.. لم يصدقني أحد.. وكما تعلمون جاءوا بي إلى هنا للكشف على قواي العقلية..

إن ما أُوقن به أنني لم أتوهَّم ما حدث لي.. لقد حدث فعلاً ولن يُغير الأمر إن صدقتموني أم لا!

أعلم أن هذا ما سوف تكتبونه.. وأن مصيري بعدها هو حبل المشنقة!!

لكني لم أعُد أعبأ بشيء!

فقط أرغب الآن في بعض النوم..

فهلا سمحتم لي بهذا أيها السادة؟!!



مدينة الملاهي



كانت تقف على الطريق الدائري بعد أن تخطى موقف العاشر من رمضان، بأكثر من كيلو مترين ويبدو أنها كانت تبحث عن سيارة ما تُقلها.. كان الوقت عصرًا ومازالت الشمس في عنفوانها تُلهِب الأرض بحرارتها.. أشارت للسيارة الأوبل السوداء بسبَّابتها اليُمنى بحركةٍ أنيقة.. تجاوزتْها السيّارة لأمتار قبل أن تُهدئ من سرعتها لتتوقف بعد لحظات، ثم تتقهقر للخلف مرة أخرى نحوها..

توقفت السيارة إلى جوارها ومال قائدها برأسه نحو الشباك المقابل لها بعد أن أنزل الزجاج بضغطة زر وقال بهدوء:

-إلى أين؟..

ظلَّت منتصبة دون أن تميل نحوه، وإن فترت شفتاها عن بسمة وأجابت:

-أي مكان مأهول!

رَمَقَها بدهشة لضبابية إجابتها، ثم أشار إليها أن تصعد السيارة؛ ففتحت الباب ودلفت للداخل برشاقة، فتحركت السيارة على الفور..

تنهّدت بارتياح، وهواء المكيف البارد ينعش خلايا وجهها والتقطت بيدها منديلاً ورقيًّا دون استئذان من علبةٍ أنيقة موضوعه

بجوارها، مسحت به حبات العرق التي علقت بجبهتها.

ظلَّ صامتًا وقد قرَّر أن يُنزلها في أقرب موقف للباص والسيارات.. قالت وهي تنظر للأمام:

-وإلى أين كنت مُتجهًا؟

أجابَ وهو يُراقب الطريق الممتد أمامه بلا نهاية:

-ليس إلى مكان مُحدد.. فقط أقودُ السيارة وأظل أدور بها إلى أن أملّ.

عبثت بخصلاتٍ من شعرها البني الداكن وتنهّدت قائلة:

-تمنيت أن امتلك سيارة لأفعل مثلما تفعل!

لم يُعقب.. خيَّم الصمتُ بينهما لفترةٍ قبل أن تُعاود الحديث مرة أخرى:

-لم تُخبرنِ عن اسمك؟.. أنا رنا شوقي...

قال باقتضابٍ محاولاً بجهدٍ أن لا يتلطف معها في الحديث:

-أنا عصمت..

-اسم قديم بعض الشيء.. أليس كذلك؟

بدا الأمر سخيفًا.. قال بنفاذ صبرٍ وهو يتمنى أن يصل بسرعةٍ إلى موقف الباص ليُلقيها فيه:

-ربما.. يُمكنك أن تحتجّ على أبي في هذا، فهو من سمَّاني هذا الإسم القديم.

بدت مستمتعةً وهي تُحاوره بإصرار بالرغم من الجفاف البادي في كلماته.. قالت وهى ترجع برأسها للخلف بطريقة جذابة لمحها من طرف عينيه:

-وهل أباك جميلٌ مثلك؟..

كانت جريئة أكثر من اللازم.. أجاب بتهكّم:

-قبل ذلك نعم.. أما الآن فلا أدري كيف صار!

-لماذا؟.. ألا تزورُه الآن؟

-لا.. لقد مات منذ عشرة أعوام.

أطلقت ضحكةً صافيةً وقالت:

-أنت لطيف الظل حقًّا بالرغم من التكشيرة التي تُصر على رسمها بوجهك.. هل تعلم أن حاجبيك يرسمان حرف 8 تقريبًا.

ابتسم وقد راقت له دعابتها.. بدتْ لطيفة.. شعر بالخجل من معاملته الجافة.. التفتَ إليها للحظة.. مازالت مُسندة رأسها على مسند مقعدها، وقد أغمضت عينيها، وتمايل شعرها الناعم الطويل بجوار وجهها.. بدتْ فاتنة هكذا.. لاحظ كذلك أن ملابسها أنيقة بالرغم من بساطتها.. عاد ينظر أمامة قبل أن يتوقف عند أحد



الإشارات، كان هناك الكثير من السيارات أمامه.. قالت دون أن تفتح عينيها:

-أين تعيش؟

-في مصر الجديدة..

- وأنا أعيش في فيصل..

رانَ الصمت للحظات مرة أخرى كأنما لا يوجد ما يقال بين الاثنين.. مازال الطريق متوقفًا.. تنهّد بقلق.. سمعها تقول:

-أتعلم.. أشعر بالملل.. ما رأيك لو ذهبنا سويًّا إلى مكان ما؟!

توترت ملامحه والتفت إليها قبل أن يقول بحذر:

-مكان مثل ماذا؟..

ردَّت ببساطة:

-أي مكان لطيف.. كافيه.. مطعم.. سينما.. ملاهي.. أي مكان نقضي فيه وقتًا ممتعًا.

شعر بأن الأمور لا تجري كما ينبغي لها أن تكون.. خاف أن يضعف أمامها ويقبل أن يقضي وقته القادم معها.. لا يُنكر أنها مُثيرة؛ إذ أن جرأتها بعثت فيها الكثير من الجاذبية.. قال مدافعًا عن رباطة جأشه ليسكتها:

-وهل اعتدتِّ أن تخرجي مع أي شخصٍ لا تعرفينه لمجرد أنك



تركبين معه سيارته؟

لم يبد عليها الضيق وهى تُجيب:

-بالطبع لا أفعل.. لكني شعرت أنك مهذبٌ.. أعلم أن بإمكاني أن أقضي وقتًا لطيف معك دون قلق...

-ربما كنت غير ذلك..

-حينها سألوم نفسي...

ردودها الغريبة ألهبته.. انتبه إلى السيارة التي انحرفت نحوه بشدة، ضَغَطَ الفرامل برقة ليهدئ من سرعته.. صَمَتَ مُفكرًا في كلامها.. ثم جاهد نفسه بشدة كي يرفض عرضها.. إلا أنه وجد نفسه يقول لها:

-ما رأيك لو ذهبنا إلى "فانتاستك بارك".. إننا بالقرب منه ويقولون إنه ملاهي مثيرة؟!

التفت إليه بجذلٍ وهى تُجيب:

-موافقة بالطبع.. إنها رائعة.. ذهبتُ إليها من قبل..

شعر بالندم.. لماذا اقترح هذا الاقتراح.. إلا أن أوَانَ التراجع قد فات بالتاكيد.. عليه أن يمضي للنهاية في الأمر.. اتخذ الطريق إلى هناك متمنيًا أن يمرّ الأمر بخير.

***



ركن السيارة في المكان المخصص للسيارات.. هبطا سويًّا فبديا كحبيبين أو مخطوبين.. بدت فاتنة يتسير بجواره، وبدا وسيمًا للغاية وهو يرتدي نظارة الشمس بالرغم من الشمس الحمراء بالأفق الآخذة في الرحيل..

اشترى تذكرتين تُتيحان لهما اللعب بجميع الألعاب.. ثم دخلا..

بدا المكان شبة مزدحم.. هناك بعض أطفال الرحلات المدرسية.. بعض العشاق الباحثين عن مكان للهو.. بعض الأسر الباحثة عن المتعة.. وهما الغريبان اللذان لا يعرفان بعضهما إلا منذ أقل من نصف الساعة، قال وهو يشير للمكان بيده:

-أين تقترحين أن نبدأ؟؟..

هزّت كتفيها وعيناها تدوران في المكان وقالت:

-هل أتيت إلى هنا من قبل؟..

أجاب بهدوء:

-هذه أول مرة.

-إذن دع الأمر لي، لقد أتيتُ من قبل هاهنا.

قال باستسلام وهو يشعر أنه يغوص أكثر في كل لحظة يقضيها بجوارها:

-كما تريدين.. لكن أخبريني حين تريدين الرحيل.



-سأخبرك حينها بالتأكيد.. والآن دعنا الآن نستمتع سويًّا!

لاحَتْ على الجانب حلقة السيارات الكهربائية التصادمية بأعمدتها التي تصل للأسلاك العليا المكهربة.. قالت له وهي تجذبه من يديه:

-ما رأيك أن نبدأ هاهنا؟..

تبعها مُجيبًا:

-كما تحبين!

انتظرا حتى انتهى الدور الحالي.. هبط الركاب من السيارات.. اتجهت إلى سيارةٍ زرقاء فاتجه خلفها ليجلس بجوارها إلا أنها صاحت:

-إلى أين؟!.. كلٌّ منا في سيارة.. أريد أن أرى من منَّا يقود أفضل!

لم يرد؛ واتجه إلى سيارة صفراء مجاورة.. جلس فيها صامتًا يُتابعها بابتسامتها العذبة السعيدة.. بدت مسرورة..

بعد دقيقة بدأت السيارات في السير.. أخذ يناور بسيارته محاولاً ألا يصطدم بأحدٍ ما، إلا أن الآخرين كانوا يصطدمون به مطلقين معها الكثير من الصرخات والضحكات الصاخبة.. التفت إليها متابعًا إياها بعينيه.. لاحظ أن هناك سيارتين تتْبعانها.. إحداهما يقودها مراهقٌ، والأخرى يقودها شاب؛ لابد أنه يحاول جذب



انتباها.. شعر بالضيق فانطلق بسيارته محاولاً اللحاق بها.. بدا الأمر صعبًا مع كمّ السيارات التي تصطدم به وتعوقه عن التقدم نحو سيارتها.. في النهاية وصل إليها، لمحته فهتفت صاخبة:

-ألستُ أقود أفضل منك؟

قبل ان يرد سمع الشاب من خلفة يهتف:

-أنتِ بارعة للغاية.. لم أر فتاةً تقود هكذا من قبل.

تمنى أن يلكمه إلا أنه بالتاكيد لن يفعل.. سمح للشاب بتجاوزه بينما انحرف هو بسيارته مبتعدًا للحظة قبل أنْ يُدير سيارته مواجهةً لجانب سيارة الشاب.. اندفع بعدها نحوه.. لم يكن الشاب منتبهًا إليه.. بدا مشغولاً بجذب انتباه الفتاة.. في لحظة واحدة شعر بالاصطدام العنيف.. التفت إلي "عصمت"، إلا أن الأخير بدا مبتسمًا وهو يقول:

-لعبة رائعة؛ اليس كذلك!

أجاب الشاب من بين أسنانه بغيظ:

-لكنها لا تُلعَب هكذا.

توقفت السيارات بعد انتهاء الدور. هبط من سيارته وهبطت هي الأخرى.. قالت وهي تتأبط ذراعه ببساطة:

-هل رأيت كيف أقود؟.. أُحب هذه اللعبة كثيرًا.. هنا يمكنك أن



تصطدم بأي سيارة دون أن تخشى شيئًا.. لكن ماذا عنك.. هل استمتعت؟

أجاب وهو يُلاحظ نظرات الشاب الذي وقف من بعيدٍ يرمُقه بغيظ:

-استمتعت للغاية!

***

مازالت تتأبط ذراعه وهما يسيران معًا.. تمر أمامهما فتاتان في أوائل العشرينات.. تنظران إليهما بعيون تعبق بالغيرة.. تتنهَّد القصيرة بحسرةٍ وكأنها تتمنى أن تكون مكان "رنا".. تميل نحوه "رنا" وتهمس بالقرب من أذنه وعيناها تُتابعان الفتاة:

-يظنوننا عاشقين.. ألا ترى ذلك؟..

يُجيب وعيناه هي الأخرى تلمح ما يحدث:

-من يرانا هكذا لابد أن يعتقد شيئًا كهذا.

تختفي الفتاتان من أمامهما وتقول "رنا":

-هل أنت مرتبط؟

يشعر إلى أين سوف يتجه الحديث مادام قد وصل إلى هذه النقطة.. يُجيب:

-لم يحدث أن ارتبطتُ بأحدٍ من قبل.



-هذا غريب!!.. أنت وسيمٌ.. لابد أن هناك دائمًا من ستحاول الارتباط بك إن لم تلتفتْ أنت إلى واحدة ما.

يقول بلامبالاة:

-يقولون إني سخيف!

تطالع ملامحه بعينيها الثاقبتان وتغمغم:

-لكني لا أراك هكذا.. أظن أنك من يتعمّد أن يبدو هكذا.

يقول بصبرٍ نافذ:

-إذن أخبريهم هذا بنفسك!

تُطلق ضحكة عالية.. يقتربان من لعبة جديدة.. القطار السريع.. تشير إليها وهي تقول:

-ما رأيك أن نُجرب هذا؟

يُجيب بلا حماس:

-لا أحب تلك الالعاب التي تتحرك بسرعة.. إنها تثير في النفس الدُّوَار والغثيان والصداع دون أن تُخيف.

تسحبه من يديه نحو اللعبة صائحةً باعتراض:

-تحرك ولاتكن مُملاً.. إنها مثيرة.. دعنا نجربها معًا.

تجلس بجواره في أحد عربات القطار الصغيرة.. يشعر بسخونة

جسدها الملتصق به.. يحاول أن يبعد جسده قليلاً دون جدوى.. فالعربة بالكاد تكفيهما.. تشعر بمحاولاته فتقول بلهجة لعوب وهى تثبت جزام الأمان جيدًا:

-لماذا تبتعد.. هل تخاف مني؟.. أنا لن أعُض ك!

يُجيب دون أن يلتفت إليها متشاغلاً برؤية عاشقين جلسا ملتصقين في العربة التي أمامها وبَدَا مستريحان للغاية بالعربة الصغيرة:

-أنا لا أخاف من أحد!

تقول بمكرٍ:

-وجهك يقول غير ذلك!

لا يرد، ويبدأ القطار في الحركة.. تُرجع رأسها للخلف وترفع ذراعيها عاليًا بنشوةٍ، والقطار يُزيد من سرعته.. يشم رائحة البارفان الذي تستعمله.. رائحة ياسمين خفيفة ومثيرة..

همس لنفسه "هذه فتاة تُجيد أن تكون أنثى"!

تبدأ الصرخات العالية من بعض الفتيات.. يعلم هو جيدًا أن أغلبها مُفتعلة.. تُجيد المرأة أن تتظاهر بالضعف والخوف لتُشعر الرجل بحاجتها إليه.. يعلم أن المرأة ليست بمثل هذا الضعف الذي تمثله..

تميل عليه "رنا" لتلتصق به أكثر، والقطار في رحلة صعود حادة



وعالية على قضيبه الوحيد وتقول صارخة كي يسمعها:

-لا تنتظر مني أن أصرخ..

يبلغ القطار الذروة ويبطئُ للحظة قبل أن يهوي بزاوية عمودية حادة وبسرعة مخيفة.. بالطبع تتعالي الصرخات الفزعة ومعها تنطلق صرخة "رنا" وهي تحتض ذراعه كأنما تستمدّ منه أمانًا زائفًا لخوفٍ زائف.. لم يشعر بالخوف.. يعلم أن كل هذه الألعاب مُؤمَّنةٌ تمامًا، والحوادث فيها شبه معدومة.. مرة أخرى يعلُو القطار ويهوي.. بعد دقائق يبطئُ القطار ويتوقف ليهبط منه ركابه المُرهقين المُترنّحين.

تقول "رنا" وهي ُبذراعه مُستندة عليها:

-إياك أن تتركني.. سأسقط لو فعلت.. أشعر بالدوار.

يقول بضيقٍ:

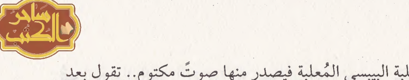
-أخبرتك أن هذا سيحدث...

تُجيب بجذل:

-لكني أُحب الإثارة.. لم أكن لأترك الفرصة...

يهزّ كتفيه ويمضى بجوارها

***



تفتح علبة البيبسي المُعلبة فيصدر منها صوتٌ مكتوم.. تقول بعد أن تجرعت جرعةً منها:

-أنا خريجة إعلام منذ عامين.. عملت صحفيّة لبعض الوقت في بعض الصحف الخاصة قبل أن أشعر بالملل.. الكثير من الكذب والنفاق والإدّعـاء.. وفى النهاية تلفيق الكثير من الأخبار إلى الجمهور

يُجيبها وهو يسند ظهره للجدار مُمسكًا هو الآخر بعلبة بيبسي يجْرعها:

-لا أظن أن الأمر قاتم كما تقولين.. هناك الكثير من الصحف الخاصة الجادة.

تقول مبتسمة لتكشف عن أسنانٍ نضيدة:

-بالتأكيد هذه موجودة.. لكني لم أتعثر بأحدها حين قررت العمل الصحفي.. لقد هويت مباشرة نحو صحفٍ تكتسب قوتها بالفضائح الجنسية الرخيصة حينًا، والأخبار الملفقة حينًا آخر.. هذا غير الرواتبَ التي لا تراها أبدًا.

-ولماذا لم تحاولي مرة أخرى في صحفٍ جادة.. أنت جميلة وأظن أنك تتمتّعين بالكثير من النشاط؟

تضحك متذكرة أمرًا ما.. تشرب جرعة صغيرة من البيبسي قبل أن



تُجيب:

-أنت قلتها.. أنا جميلة.. هذا يعني للجميع أشياء كثيرة آخرها نشاطي الصحفي.

فهم ما تقصد فابتسم.. أنهى مشروبه فألقى العلبة الفارغة في سلة مهملات مجاورة.. وقال لها بعد أن نظر إلى ساعته:

-أترغبين في الانصراف؟

تصيح مُحتجة:

-ليس الآن.. الوقت ما يزال مبكرًا ولم نلعب كل شيء.

-أخشى أن تتأخري.

-اطمئن.. لا تُلق بالاً بهذا الأمر.. دعنا نلعب لعبة أخرى.

ينطلقان مرة أخرى.. يمرَّان ببعض الحشود المجاورة لأحد الألعاب.. كان قطار القوة..

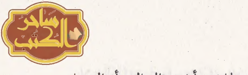
تقول بحماسٍ له:

-ما رأيك لو تحاول.. ربما ربحتَ شيئًا تُهديه لي.

ينظر إلى القطار الذي يسير على قضيبان صاعدان ويقول بهدوء:

-لا أظن أنني أستطيع أن أفعلها.

تقول بإصرار:



-لا تكن سخيفًا وحاول.. ليس من اللائق أن تسال المرأة الرجل إظهار قوته فيُخبرها بضعفه.

يقول باستخفافٍ وهو يُلاحظ المحاولة الفاشلة لاحد الشباب المُنتفخ العضلات والذي بدا أن عضلاته أضعف كثيرًا مما تبدو:

-المسألة أنني لا أُحب أن أدخل رهانًا أعلم أنني قد أفشل فيه.

-وأيضًا قد تنجح.. هيا حاول من أجلي!

يتقدم بتذكرته الشاملة نحو الرجل الضخم المسئول عن اللعبة.. يومئ برأسه له.. يمسك القائم الحديدي الصغير الموجود بمؤخرة اللعبة ويهزّها هزَّات صغيرة ليختبر وزنها ومقاومتها.. ينظر نحو "رنا" التي ضمّت كفّيها أمام وجهها بترقُّب وابتسامة ساحرة ترتسم على وجهها.. يدفع القطار ليعدو بسرعة على القضبان.. دوت الفرقعة الصغيرة التي أشارت إلى نجاحه في إصابة الهدف بالقطار.. يسمع تصفيقًا في المكان وصرخة ووواووووو في تدوى بجوار أذنه تُطلقها "رنا"..

يمد إليه الرجل الضخم لعبة مُغلفة مُخبرًا إياه أنها جائزته.. يلتقطها ويتحرك مبتعدًا.. تقول "رنا" بغضبٍ مصطنع:

-لقد كذبت عليّ.. لم أكن أعلم أنك بمثل هذه القوة!

يُقدم لها الهدية الملفوفة باللفافة البراقة وهو يُجيب:



-لا شأن للقوة ها هنا.. إنه التركيز!

تلتقط الهدية وتفض غلافها.. كانت كلبًا صغيرًا لا يكف رأسه المحمول على سلك رفيع عن الحركة.. رمقته بإعجاب وهي تقول:

-إنه لطيف!

يقول وهو يجذبها ليُبعدها عن مجموعة من الشباب يعترضون الطريق ويُطلقون نحوها نظرات تمتلئ باللزوجة:

-يمكنك الإحتفاظ به مادام قد أعجبك!

***

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء حين كرر سؤاله لها إن كانت ترغب في أن يُغادرا المكان.. كانت إجابتها واحدة:

-ليس الآن.. مازال الوقت مبكرًا.

قال لها وقد بدأ يشعر بالملل من الملاهي:

-ألنْ يقلق عليك أهلك؟!

مطّت شفتيها بضيقٍ وقالت:

-إنني أعيش بمفردي.. أبي قد تُوفّي منذ أعوام، وأمي قد تزوّجت، وهي الآن برفقة زوجها بالكويت حيث يعمل

هزَّ رأسه متفهمًا ولم يرغب في مواساتها.. لكنه سألها سؤالاً آخر:

-هل أنتِ مرتبطة؟

ابتسمت بجانب فمها وأجابت:

-كنت.. لكنني الآن لستُ مرتبطة.. تركني من أجل أخرى.

-وهل يمكن لأحد أن يترك من هي بجمالك ليذهب لأخرى.

أجابت بلا مُبالاة:

-القصة التقليدية للرجل المصري.. يهيمُ عشقًا بالفتاة المتحررة الجميلة الشقية الجذابة ال"هوت" بالتعبير الأمريكي.. لكنه حين الزواج يُفضل من هي بطراز باتعة أو أم الخير!

أطلق ضحكة لطرافة تعليقها وقال:

-في النهاية من يتركك هو الخاسر حقًّا.

تطلعت لعينيه صامتة قبل أن تقول بجدية:

-هل هذا رأيك حقًّا؟

لم يرغب في إجابة السؤال، لذا رفع نظره إلى أحد المطاعم الذي يُقدم شطائر اللحوم قائلاً:

-هل تشعرين بالجوع؟

هزَّت رأسها بالنفي، وقالت بلهجةٍ عجيبة:

-بالطبع جائعة لكنني لن آكل الآن.. أرى أن أنتظر قليلاً؛ ربما آكُلُ شيئًا أفضل.

أثارت كلماتها الغريبة حيرته.. قال بحذرٍ:

-لست أفهم..

قالت وهي تجذبه بعيدًا عن المطعم:

-فيما بعد ستعرف!

ثم خفضت صوتها كثيرًا وهي تميلُ نحو أُذنه هامسةً:

-ربما آكُلُكَ أنت!

شعر بالتوتر من كلماتها التي تحمل الكثير من الغموض.. آثر الصمت.. هناك سرٌّ ما حول تلك الفتاة، وحتمًا سيصل إلى كنهه.. استمرّا في السير في طرقات الملاهي المزدحمة الآن.. الأضواء تمتزج وتنعكس في كل مكانٍ مُبهجة مُبهرة، والصخب والصرخات والضحكات تدوي في كل لحظة دون توقف..

إنه المرح يا شباب؛ فلا تكفوا عن ارتشافه..

مروا ببناء مُبهر مرسوم عليه شخصٌ كاريكاتوري بقبعة طويلة مُضحكة ومكتوبٌ فوقه بيت حجا.. تحاشى النظر إليه إلا انها قالت له:

-لندخل بيت حجا.. إنها متاهة مثيرة.. سوف تروقُ لك!



يعلم جيدًا ما هو بيت حجا هذا.. متاهةٌ تحت الأرض تمتلئ بالحجرات والدروب والأنفاق.. تنزل إليه، ومطلوبٌ منك أن تتوصل إلى المخرج الصحيح، وإلا ظللْت تائهًا فيه..

بالطبع هناك دومًا موظفون لمراقبة المكان ليتدخلوا في الوقت المناسب لإرشاد التائهين في المكان عند الحاجة.

لم يرغب في دخول المكان وهي معه.. قال لها:

-أرى أن نذهب إلى الديسكو.. أرى أضواءه تتوهَّج من هذا الطريق.

إلا أنها مرة أخرى كانت مُصرةً بغرابة:

-كلا.. يُمكن للديسكو أن ينتظر.. أرغبُ في اختبار ذاكرتي إن كنتُ مازلتُ أذكر أين يوجد المخرج!

قال لها وقد بدأ يشعر بالقلق منها:

-لا أشعر بالراحة في الأماكن المغلقة.

-لن تكون بمفردك؛ سأكونُ معك.

قالتها وهي كالعادة تجذبه بقوةٍ لداخل المكان.. تبِعَها بضيق حقيقي وقلبه يضطرب.. شبَّكت كف يدها في كف يده وتقدمته.. في البداية كان عليهما أن يهبطا بعض الدرجات الرخامية.. بعد ذلك وصلا إلى ردهة خافتة الإضاءة.. ارتفع صوت حذائيْهما اللذين



يترددا في المكان الهادئ.. تبعها صامتًا وهو يفكر في غرابتها.. عادت الأسئلة المهمة في الطفو مرة أخرى على سطح عقلة.. تذكر كيف أن المكان الذي التقطها منه كان مهجورًا، كيف وصلت إليه ولماذا كانت فيه.. تذكر جرأتها.. صلابتها وقوة قبضتها حين كانت تجذبه.. طفت على سطح ذاكرته كلماتها عن أنها ربما تأكله هو بدلاً من الطعام.. كانت غريبة.. هذه الفتاة غامضة وتقوده إلى منطقة لا يرغبُ ببلوغها..

عند نهاية الردهة كانت أمامهما صورة ضاحكة لحجا وثلاث فجوات تقود إلى ردهات مختلفة.. قبل أن يسالها إلى أين؟ أشارت للفجوة اليسرى وقالت بثقة:

-هذا الاتجاه!

قالتها وتقدمته مرة أخرى.. تبعها صامتًا وهو يضطرب.. بعد أمتار قليلة كان هناك بعض التائهين العائدين مرة أخرى إلى الممر الرئيسي.. قالت سيدة في منتصف العمر لهم:

-أرى أن تعودا معنا.. الطريق هنا ينتهي إلى ممرّات متشابكة لا أظن أنها ستصل بكما إلى شيء.. اتبعاني لنُجرب الطريق الأوسط.

كان هذا ما يرغب هو فيه بشدة.. كانت قطرات صغيرة من العرق تغزو جبهته الآن، فقال لـ"رنا" وهو يجذبها برفق:

-أرى أن السيدة على حق.. لنتبعهم.



بدتْ عنيدةً للغاية، وهي تُجيب بثقة:

-كلا.. لنكتشف المكان سويًّا.

قال بإصرارٍ وهو مازال واقفًا:

-لنكتشفه في وقت آخر ودعينا نلحق بهؤلاء.. ربما كانت هناك أنفاق ما في المكان لم تكتمل بعد، فنتوه فيها.

-سيكون هذا رائعًا لو حدث!

قالتها وغمزت له بعينها وأكملت:

-سيكون الأمر رومانسيًّا لو تهنا سويًّا وكنا فقط معًا!

-بل سيكون الأمر كارثة لو تُهنا في المكان ولم يشعر بنا أحد.. سنموت جوعًا حينها!

ارتسمت ابتسامة شيطانية على وجهها وهي تقول:

-أنا لن أموت.. فلو جعتُ فأنت موجودٌ!

للمرة الثانية تقول هذه العبارة.. تطلع لعينيها مُحاولاً سبر أغوارها.. بدتْ مصمتة وغامضة ومثيرة.. جذبته من يديه دون أن تتركه لأفكاره وهي تقول:

-هيا بنا نمضي ولا نضيع الوقت.

تبعها مضطرًّا.. انتهى هذا النفق إلى صورة حجا الضاحكة وأربعة



أنفاق أخرى.. أشارت للثاني من جهة اليسار وقالت بثقة:

-لنتبع هذا!

لم يمانعْها وهو يُدرك انها تتجه إلى مكانٍ ما مقصود.. ظل يتبعها صامتًا في حذر.. انتهى الطريق إلى جدار صخريٍّ به فجوتان مظلمتان.. أراد أن ينتهي الأمر هاهنا ويعودا.. بعد ذلك ربما لا يكون هناك عودة.. إلا أنها أضاءت كشافَ هاتفها المحمول، واتَّجهت للفجوة اليُمنى دون أنْ تساله أن يتبعها..

تبعها باستسلام.. بدت الفجوة ككهفٍ في الصخور أو مغارة غير مكتشفة.. اضطر من حين لآخر لأنْ ينحني لأنّ السقف كان يبرز ناتئًا من حينٍ لآخر.. كان ما يسمعه هو أنفاسها اللاهثة.. بعد دقائق توقفت ووضَعت الموبيل على فجوة في الجدار ليُضيء ما حولهما

نظرت إليه نظرة غريبة.. تراقص ضوء كشاف الموبايل على عينيها وأسنانها.. لاحظ أن انيابها بارزة بعض الشيء.. بدأ العرق يغزوه.. قالت بصوتٍ مبحوح:

-الآن قد تُهنا.. أليس كذلك؟!

لم يتكلم، ولم يرد؛ حاول أن يُقاوم نفسه.. بدت ملايين المطارق تطرق عقله وجمجمته.. بدأ العرق يُغرقه وبعدها بدأ الأنين.. اتسعت عيناها بفزعٍ وهى تقول:

-"عصمت" ماذا بك

لم يُجبها وهو يحيط جبهته بكلتا يديه.. بدأ أنينه يعلو غريبًا.. بدا كالعواء.. شعرت بالفزع فقالت بصوت مرتجف:

-هل يمكن أن نعود أدراجنا؟!

وجّهت كشاف الموبايل نحوه.. بدتْ عيناه حمراوين كالدم.. صرخت وسقط الموبايل منها فانطفأ الكشاف.. لكن عينا عصمت كانتا تضيئان المكان، تراجعت وهي تصطدم بالصخور، ثم هتفت برعبٍ وقلبها يكاد يتوقف من الرعب احتجاجًا:

-"عصمت".. أنت تُخيفُني.. ماذا يحدث لك.. أخبرني.. لا تصمتْ هكذا!

استقام والتمعت ابتسامةً مخيفة على وجهه:

-أنتِ حمقاء أيتها الفتاة.. حاولتُ مرارًا أن أُبعدك عن هنا؛ لكنك كنتَ تُصرين إصرارًا غريبًا.. إذًا هذا هو قدرك!

بصوتٍ مخنوق قالت بكلمات مبعثرة:

-من.. من أنت؟.

انطلقت ضحكته المخيفة.. وقال وهو يتقدم نحوها:

-أحد أبناء سادة الظلام.. هل تعرفين مصاصي الدماء.. أنا أحدهم لسوء حظك.. في الواقع لم أكن جائعًا ولم أكن أرغب في إيذائك لكنك جئتِ إلى أحد أوْكارنا.. هنا نعود لطبيعتنا.. هنا لابد لنا من



الدم كي نعيش!

تعالت صرخاتها البائسة.. بدا المكان مهجورًا تمامًا.. انحنى نحوها وطوَّقها بيدين تنتهيان بالمخالب، وابتسامةً تُبرِز نابيْه الطويلين..

وكان هذا آخر ما رأته قبل أن تُظلم الدنيا في عينيها للأبد..

وأمام أحد شاشات العرض الموجودة في غرفة المراقبة بالأعلى، مطّ أحد الحراس شفتيه بكسل، وهو يُراقب "عصمت" على أحد شاشات المراقبة، والذى خرج من فجوة الكهف الآن.. وقال للآخر:

-يا له من محظوظ.. لقد ظفر بوجبةٍ سهلة!.

ابتسم الآخر وهو يُشير بيده نحو الشاشة بعلامة النصر.. في اللحظة نفسها تطلع "عصمت" إلى الكاميرا التي تُتابعه، وابتسم وهو يلوح بإصبعيه هو الآخر بعلامة النصر.



قُربان بشري



"تستندُ هذه القصة إلى واقعةٍ حقيقيةٍ"



في أيامٍ معدودةٍ أصاب القريةَ الجنونُ..

لم يعد هناك من حديثٍ غير حديث المقبرة الأثرية التي يُقال إن "عبوده الشربينى" و"سعيد سلامة"، قد عثرا عليها بعد التنقيبات العديدة التي ظلا يفعلانها سرًّا في الليالي المَظلمة بالقرب من من "القرافة" القديمة..

في البداية كان هناك الكثير من التشكيك في الروايات المُتداولة عن القصة، وخاصةً مع إصرار "عبوده" و"سعيد" على إنكار القصة كلها، بل والسخرية منها طوال الوقت.. إلا أن الكثيرين كانوا متأكدين من أنهما قد عثرا بالفعل على مقبرة ممتلئة بالذهب.. بل وقام بعض الشباب المتحمس بالتفتيش في منطقة القرافة عن أي أعمال حفر مزعومة عسى أن يصلوا إلى مكان تلك المقبرة!

لكن كل هذا كان بلا جدوى.. فلم يعثروا في النهاية إلا على بعض الحُفر القديمة.

وبعد أقل من شهر من انطلاق تلك الاشاعات، هدأ كل شيء وتناسى الجميع الأَمر.. لكن وبعد زمن قصير، بدأت أعراض وفرة المال تظهر بجلاء على الاثنين.. فابتاع "عبوده" فجأة فدانين من الأرض، واشترى "سعيد" سيارة حديثة وفيلا ضخمة.. ومرة أخرى تعالى الحديث بشدة عن ذلك الكنز الأثريّ الذي تيقن



الجميع الآن أنه موجود، وإلا ما تفسير هذا الثراء المفاجئ الذي هبط على الاثنين بغتةً..

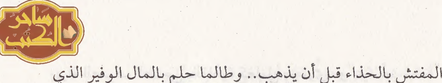
بالطبع صاحَبَ هذا حُمى رهيبةً من البحث عن كنوز أخرى ربما مازالت موجودة أسفل أرض البلدة.. حتى أن كل فردٍ في القرية كلها، راحَ يحفر داخل بيته.. وحول المقابر.. بل وفي قلب الأراض الزراعية أيضًا.. صار حلم الثراء السهل يُداعب خيال الجميع..

لكن وبعد حين أدركَ الجميع أن شيئًا لن يحدث، وأنه لا كنوز في أي مكان، ورويدًا رويدًا خَفتَ حلم الثراء المنتظر، فانتهت كل أعمال التنقيب تقريبًا في كل مكان مع كمٍّ غير قليل من الحسرة على المجهود الذي ضاع بلا جدوى، والبيوت التي تدهورت جراء التنقيب.. بالطبع تحوّلت تلك الحسرة إلى نقمة على "سعيد" و"عبوده"، ربما لأنهما كانا أوفر حظًا، إلا أن الاثنين ظلا على نفيهما وإصرارهما أنهما لم يعثرا على شيء.

***

بالطبع كان "عبدالسلام" أحد الذين اشتركوا في التنقيب والبحث.. ظل لليالٍ طويلة يحلم بالكنز الذي ينتشله من الفقر، ومن الدار القديمة المُتهدمة التي يسكنها، ومن مفتش المحطة الذي يُكن الكراهية له بلا مبرر، حتى أحال عَمَلَهُ كعامل مزلقانات في السكك الحديدية إلى جحيم..

لو حظي بالمال فسوف يستقيل من عمله، وسوف يضرب ذلك



المفتش بالحذاء قبل أن يذهب.. وطالما حلم بالمال الوفير الذي سيُساعده على تزويج البنات، وبناء بيت جديد، وربما الحج أيضًا..

قام بالحفر في كل ركن في البيت من الداخل وحوله وخاصة أن داره القديمة المبنية من الطوب اللَّبن كانت مُنعزلةً وبعيدةً عن قلب القرية، كما أنها كانت بالقرب من المقابر..

كانت في رأيه مكانًا مثاليًا للبحث.. الواقع أن الكثيرين آمنوا بنفس رأيه هذا.. فالمنطقة التي بني فيها بيته تجاور الأراضي الأثريّة التي تتبع وزارة الآثار والتى يعتقد الكثيرون أنها تحتوي على كنوز مدفونة من أيام اليهود والفراعين والعماليق..

وبعد أطنان التراب التي أخرجها من باطن الأرض، وبعد ظهور الكثير من التشققات على الجدران، والمنذرة بأن البيت صار على وشك الانهيار، توقف عن أعمال الحفر متحسرًا على حظه السيِّئ..

انهارت أحلامه وتبدَّدت آماله تمامًا، حتى أنه تثاقل في هدم الأنفاق والحُفر التي حَفَرَها تحت البيت، فتراكمت تلال التراب داخل أروقة البيت، مما جعلها تضيق عليهم أكثر مما هي ضيقة بالفعل..

كان يسهر كل ليلة أمام الدار هو و"منصور البرعي"، الذي يعمل



بهيئة الصرف الصحي بالقاهرة كعامل مجاري، و"عيد أبو شامة" الذي يعمل كعامل نظافة بالبلدية.. وأمامهم قَبعت الشيشة تنشر عبق دخان المعسل ذي الرائحة المميزة، مصحوبة بحكايات لا تنتهي عما يدور في القرية، والقرى التي بجوار قريتهم.. يُخالط نميمَهم أحلامٌ غامضةٌ وحكاياتٌ مختلقة عن نساء، يزعمون أنهم لو كانوا أكثر حظًا وأكثر غِنى لارتمت تلك النسوة تحت أقدامهم..

أخذ "عيد" نَفَسًا عميقًا من الشيشة، ومعها تعالت القرقرة المُميزة لها.. ثم أخرج الدخان من أنفه مُطلقًا سحابة ضبابية فوق رأسه، ومال نحو الاثنين الجالسين أمامه على حصيرة مُتهالكة، وقال هامسًا:

-لديَّ أمرٌ أُريد أن تشاركونني فيه.. لكن في البداية أريد وعدًا أن يظل الأمرُ سرًّا بيننا!

رَمَقَاه باستهزاءٍ.. كل أسراره يكتشفون أنها زائفة، وأكثر شهرةً من القمر نفسه.. فقال "منصور" ساخرًا:

-لا تخبرني أن امرأةً دعتك لتقضي ليلةً عندها!

أطلق معها ضحكةً صاخبة، شاركه إياها "عبدالسلام"؛ إلا أن "عيد" لم يشاركهما الضحك كالعادة، وظل يرمقهما بصبر منتظرًا حتى انتهيا من ضحكاتهما وعاد ليقول:

-أنا لا أمزحُ الآن.. لديّ بالفعل ما أُريد أن أخبركم به.. لكني لن



أتحدث إلا لو وعدتُّماني أن يبقى الأمر سرًّا بيننا.

تطلعا إليه بدهشة.. لم تكن هذه الجديّة مُعتادةً منه.. فقال "عبدالسلام" وهو يتناول منه مبْسَم الشيشة ويضعُها في فمه:

-حسنًا! تكلم يا "عيد"، أخبرنا ما الأمر؟

-إلا إنه قال بإصرار:

-الوعْد أولاً!

قال "منصور" مُستسلمًا:

-نعدُك يا "عيد"، والآن تكلم.. ماذا هناك؟

نقل نظرةُ إلى "عبدالسلام" فقال هو الآخر:

-وأنا أعدُك نفس الوعد، لن أُخبر أحدًا بما ستقوله!

زَفَرَ بارتياح.. ثم قال هامسًا كأنما بخشى أن يسمعهم أحدٌ ما، بالرغم من استحالة حدوث هذا:

-هناك من يُمكنه أن يساعدنا في العثور على مقبرة فرعونية مليئة بالذهب.

توقف "عبدالسلام" عن سحب أنفاس الدخان، بل وسَعَلَ أيضًا وهو ينظر إليه في غير تصديق، بينما قال "منصور" بحذر:

-مرة أخرى تريدنا أن نعود لهذا الهُراء، أنت أخرق يا رجل!



-هذه المرة تختلف، والمقبرة التي أتحدث عنها تحوي كنزًا أكبر من هذا الذي عثر عليه "عبوده" و"سعيد".

توقف "عبدالسلام" عن السُّعال، وقال بصوتٍ مخنوقٍ من أثر الدخان:

-ومن هذا الخارقُ الذي سيُساعدنا؟

- الشيخ "هلال".. إنه رجلٌ مبروك، وذو خطوة كما تعلمان، وقد أخبرني أنه يعرف طريقها، لكنه يحتاج لمساعدتنا.

كانا يعرفان الشيخ "هلال".. بل وتعرفه القرية كلها والقرى المجاورة كذلك!

إنه يُخرج الجان من "الملبوسين" ويصنع "الأعمال" و"يفكها" ويُعالج المرضى، ويكتشف السرقات، ويحمي البهائم بتعاويذه من المرض.. كان يقوم بكل شيء ولا أحد يُشكك في قُدراته..

وغمغم "منصور" وهو يحكُّ شعر رأسه بأنامله:

-لستُ أفهم ما تقول.. مادام يعرف طريق الكنز كما يقول؛ فلماذا لا يبحث عنه بمفرده بدلاً من أن نشاركه فيه؟

بدا كلامه منطقيًّا.. حتى إن "عبدالسلام" قال هو الآخر موافِقًا؛ وهو ينقل مبْسم الشيشة إلى "منصور":

-كلام معقول.. لماذا يطلب مساعدتنا نحن على وجه الخصوص



ما دام يعرف طريقها؟

ارتسمت ابتسامة على وجه "عيد" وبدا أنه أعد الإجابة من قبل، وعينه تتجه نحو "عبد السلام":

-لأنه يعتقد أن الكنز مخبوء في دارك أنت يا "عبدالسلام"!

بدت الدهشة على وجه "عبدالسلام" وقال:

-داري أنا؟.. وأين تكون تلك المقبرة اللعينة وقد نبشت كل حجر فيها، ولم أجد أي شيء إلا مياه المجاري ورَوَث الفئران.. ألا ترى أيها المغفل كيف تضرَّرت جدران البيت بشدة؛ حتى صِرت أخشى أن تنهار الدار بسبب هذا فوق رأسي.

-ربما لم تبحث في الناحية الصحيحة.. أو ربما كان الكنز أمامك ولكنك لا تراه!

عقب "منصور" ساخرًا:

- أمامه ولا يراه؟.. ولماذا يا أحمق؟.. هل يرتدي الكنز طاقية الإخفاء مثلا؟

-كلا لم أقصد هذا.. الشيخ "هلال" يقول إن تلك الكنوز تكون عادة مختومة بطلاسم يخدمها ملوك الجان، لهذا لا يراها إلا من يعرف سر هذه الطلاسم.

بدا كلامه مألوفًا.. تذكروا عشرات الحكايات التي سمعوا عنها من



قبل؛ والتي تتحدث عن الكنوز المختومة بالطلاسم والتي يحرسُها الجان.. بدا الأمر مقنعًا، وربما يُفسر لماذا لم يعثر "عبدالسلام" على الكنز.. وطالما الأمر يتعلق بالجان والتعاويذ، والطلاسم فالشيخ "هلال" هو خير من يتعامل مع الأمر..

وقال "عبدالسلام" وأحلام الثَّراء تُعاوده من بعيد مرة أخرى:

-إذًا ماذا علينا أن نفعل؟

أجابه "عيد" بسرعة:

-سنُعاود الحفر مرة أخرى!

-وماذا عن الشيخ "هلال".. هل سيكون معنا؟

أجاب "عيد" على الفور؛ وهو يتخيل نفسه يركب سيارة جديدة مُكيفة الهواء كسيارة "سعيد" وهي تنطلق في شوارع القرية الترابية مُثيرة خلفها سُحُب الغبار:

-بالطبع يا رجل.. سيكون معنا دائمًا كى يُخبرنا كيف نعثر على المقبرة.

***

أمسك بعصاه الضخمة التي تنتهي بمقبض أسود ذي شكل غريب قد يكون رأس أفعى، وأخذ يدقُّ بها على الأرض في أماكن مختلفة من بيت "عبدالسلام"..

كان الشيخ "هلال" يُحاول أن يُحدد على وجه الدقة أين يبدأ الثلاثة في الحفر.. ومن فمه انطلقت همهمات بكلمات غريبة ميَّزوا من بينها كلمات "ضرغام".. "همهام".. "أراكام".. لكن صوته ظل خافتًا غير مفهوم.

أخذوا يتبعونه في توتر.. وقال "منصور" في لهفة:

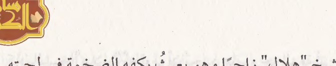
-هل انتهيت يا شيخ "هلال"؟

رَمَقَه الشيخ "هلال" بنظرة نارية دون أن يتوقف عن التّمتمة فصَمَتَ على الفور.. ثم شعر بمثانته تلحّ عليه.. لابد أن مستوى السكر حاليًا قد ارتفع كثيرًا في دمه بسبب توتره، فأسرع للخارج ليُفرغ مثانته.. وحين عاد كان الشيخ "هلال" قد انتهى.. التفت إليهم وقال بلهجة ظافرة، وهو يُشير إلى بقعة من الأرض بعصاه:

-احفروا هنا.. الكنز مخبوءٌ هاهنا بإذن الله!

كانت تلك البقعة تقع ملاصقة لأحد جدران المنزل المُتهالكة.. وكان "عبدالسلام" قد قام بالحفر بالفعل في نفس المكان من قبل دون أن يعثر على شيء.. فقال بحذرٍ وهو يُفكر هل سيحتمل الجدار الذي امتلأ بالتشققات الكبيرة الحفر أسفله مرة أخرى، أم سيتهدم ويسقط السقف الخشبي معه:

-لكنى حفرت بالفعل في هذا المكان، ولم أعثر على شيء يا شيخ "هلال"!



فردّ عليه الشيخ "هلال" زاجرًا وهو يعبثُ بكفه الضخمة في لحيته الكثّة:

-كنت حينها أعمى، ولم تكن لترى المقبرة، ولو كانت أمام عينيك.. الكنز مخبوءٌ بواسطة ملوك الجان ولن يكشفوه إلا لمن يملك المفتاح.

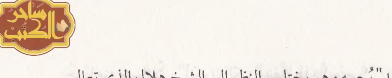
وسَعَلَ بعدها للحظات، ثم بَصَقَ على الأرض في نفس المكان الذي سيحفرون فيه، وقال في حسم:

-هيا ابدأوا الحفر على الفور.. فملوك الجان هاهنا ينتظرون

بدءوا الحفر.. ومَضَتْ ساعاتٌ وهم يحفرون بجدٍّ وأمل، والشيخ "هلال" يجلس في الركن المقابل يتابع عملهم، ومن حين لآخر يغمض عينيه في غفوةٍ قصيرةٍ دون أن يكف فمه عن الهَمْهمة الغامضة..

وقُرب الفجر كانوا قد صنعوا نفقًا طويلاً في باطن الارض.. لكنهم لم يعثروا على شيء.. وقال "عبدالسلام" بإحباط؛ وهو يمسح العرق الغزير الذي احتشد على جبهته مختلطًا بالتراب بعد أن ألقى الفأس التي يحفر بها على الأرض:

-لا شيء.. أخبرتكم من قبل أنني قد حفرت نفس المكان، ولم أعثر على تلك المقبرة اللعينة.. لو استمرينا في الحفر هاهنا للعام القادم فلن نُخرج إلا التراب.



أسرع "عيد" يُجيبه وهو يختلس النظر إلى الشيخ هلال الذي تعالى شخيره الآن:

-اصبر يا رجل!.. ربما يحتاج الأمر إلى حفر أعمق!

لم يُقنع الجواب "عبدالسلام" الذي قال وعيناه تمسحان الجدار المُتهالك المُجاور لمكان الحفر:

-لكن البيت سيسقط هكذا.. إنني أتعجب كيف ظل هذا الحائط صامدًا حتى الان؟!

غمغم "منصور" بلهجته الساخرة ولكن بصوتٍ خافتٍ كي لا يسمعه الشيخ "هلال" النائم:

-ربما حلَّت به بركة الشيخ "هلال"، ألا يقولون إنه رجل "مبروك".

كان "عيد" هو أكثرهم إيمانًا بالشيخ "هلال".. فقال لهم وهو يُعاود الحفر:

-يمكنكم أن تستريحوا، وأن تُدخنوا سيجارة لو أحببتم.. أما أنا فسأواصل الحفر.. فلم أشعر بالتعب بعد.

كانا يائسين مُرهقين، فتركاه دون كلام، بينما أخذ يحفر ويضرب الأرض بفأسه بقوة.. وبعد دقائق اصطدمت الفأس بحجر ما.. ضرب الفأس مرة أخرى فاصطدم بالحجر مرة أخرى مُصدرًا رنينًا مميزًا.. حبس أنفاسه بلهفةٍ وترقبٍ، وتطلع إلى الحجر الذي برز



جزءًا منه متسائلاً.. "أيكون الكنز أسفل هذا الحجر؟"

شعر بالأمل.. وهلّل بصوت عالٍ كي يسمعه صديقيه:

-"عبدالسلام".. "منصور".. تعالا بسرعة.. لقد وجدت شيئًا ما!

استيقظ الشيخ "هلال" على صرخاته فقال بلهفة:

-هل وجدت شيئًا؟..

أجابه "عيد" بسعادة:

-ارتطم فأسي بحجر قويّ لم تؤثر فيه ضرباتي.

هتف الشيخ هلال بصوته المشروخ فرحًا:

-إنه باب الكنز.. هذا هو العلامة التي أخبرني بها "شهبورش بن شبرهام"؛ ملك الجان الأحمر.. هيا يا رجال.. هيا عاودوا الحفر بهمّة.. الكنز بانتظارنا

بدت الحماسة عليهم، فاخذوا يضربون جوانب الحجر بقوة.. لكنه لم يتحرك أو يتزحزح من مكانه قيد أنملة.. في النهاية صاح "منصور" في الشيخ "هلال":

-الحجر لا يتحرك يا شيخ هلال.. ماذا نفعل؟

-اضربوه بقوة أكبر..

-لقد فعلنا حتى كادت مفاصل أذرعنا أن تنخلع!



-إذًا انتظروا.. سوف أهبط لأرى!

قالها وهبط الحفرة العميقة محاولاً ألا تنزلق قدمه.. تقدم نحو الحجر، وأخذ في تحسُّسه بكفّه وهو يتمتم بتعاويذ غامضة ما، قبل أن ينظر إليهم في النهاية قائلاً:

-إنه رصدٌ وطلسمٌ؛ ولن ينفع الفأس معه!

قال "عيد" بخيبة أمل:

-إذًا ماذا نفعل؟

صمت الشيخ هلال قليلاً، وعيناه الزجاجيتان ترمقهم في خبثٍ، قبل أن يقول:

-نُريد دماءً حية.. ملوك الجان في حاجة لقربان ودماء.

بدا الذُّهول عليهم.. وقال "عبدالسلام":

-دماءٌ وقربان؟!.. ماذا تقصد يا شيخ "هلال"؟

-لتحضروا حيوانًا ما.. كلبٌ ضالّ أو قطٌّ مثلاً.. سوف نذبحه ونُسيل دماءه على الحجر لينفك الرصد، ويستجيب الحجر ونجد الكنز.

قال "منصور" بغير اقتناع:

-ومن أين نحصل على هذا الكلب أو القط الآن..



زمجر الشيخ بغضب قائلاً:

-تصرفوا وأحضروا حيوانًا ما؛ إن كنتم تريدون الكنز حقًا.. أو اتركوني أعود لداري ولا تُضيعوا وقتي معكم.

هنا تدخل "عيد" مُهدئًا الشيخ "هلال":

-كلا يا شيخ "هلال".. سوف نخرج الآن نُحضر ما تريده.. أليس كذلك يا رجال؟

تذمَّر الاثنان بصوتٍ غير مسموع.. فقال الشيخ "هلال" وهو يصعد الحفرة للأعلى:

-إذًا أسرعوا، فالنهار يُوشك على الظهور بعد قليل.. والكنزُ لن نعثر عليه إلا في ظُلمة الليل.

***

لم يتغيبوا طويلاً.. فبعد أقل من ثلث الساعة كانوا قد عادوا حاملين كلبًا هزيلاً، وقد ربطوا أطرافه الأربع في عصا طويلة، تعاون "عبدالسلام" و"عيد" على حمل طرفيها.. كان الكلب يعوي بلا انقطاع وهو لا يفهم ما يحدث ورأسه تتحرك في كل اتجاه مُحاولة التشبث بأي شيء.. وبادرهم الشيخ "هلال" حين رآهم قائلاً، وعيناه ترقب السماء، وقد بدأت تظهر فيها خيوط الفجر الأولى:

-أحسنتم يا رجال!.. دعونا نذهب به إلى الحجر بسرعة!



قال "منصور" متذمرًا وهو يرفع يده اليمنى ليبدو عليها آثار دماءٍ جافة وجرح عميق:

-لكنه قد عضني.. أخشى أن يكون مسعورًا!

رد عليه الشيخ "هلال" بلا مبالاة:

-يمكنك أن تذهب إلى المستشفى حين ننتهي كي يحقنوك بالمصل المضاد!

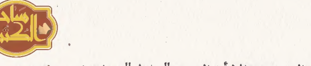
فكر "منصور" في ال21 حقنة التي تُعطى حول الصرة لمن يعقرهم كلبٌ ضال، فشعر بالحنق وغمغم هامسًا وهو يتبعهم للداخل:

-لعنكم الله، وخاصةً هذا الشيخ اللعين..

تعاونوا على إنـزال الكلب نحو الحفرة الضيقة، وأخذ نباحه يتردد مكتومًا داخل الحفرة.. ثم تبعهم الشيخ "هلال" حاملاً سكينًا غريبًا، وراح يردد همهمات غريبة قبل أن يهوي نحو عنق الكلب فينحره.. أخذ الكلب ينتفض بشدة، و"عيد" و"عبدالسلام" يتشبثون بصعوبة بالعصا المربوط فيها؛ كي لا تفلت من أيديهم.

سال الدم نحو الصخرة.. وبدا أنها تتشرب كل قطرة من الدماء بنهم.. كانت عينا الشيخ هلال تبرُقان بشدة وأخذ يُتمتم بكلمات غريبة بطريقة سريعة لم يستطع أيّ منهم أن يفهم كلمة واحدة منها..

اهتزّت الصخرة وبدت أصواتٌ مُخيفةٌ تتردد من أسفلها.. شعر



الجميع بالوجل والرعب.. إلا أن الشيخ "هلال" صاح فيهم بفرح:
-لا تخافوا.. الرصد يزول الآن!

استمر اهتزاز الحجر للحظات، ثم همد دون أن يتحرك من مكانه.. أسرعوا نحوه محاولين إزاحته.. لكنه لم يستجب.. جربوا الفؤوس مرة أخرى فلم يتغير الأمر..

في النهاية التفتوا إلى الشيخ "هلال" بيأس.. بدا وجهه ممتقع بشدة.. وقال "عيد" له:

-ماذا هناك يا شيخ "هلال".. لماذا لم يفتح الباب؟..

لم يرد الشيخ مباشرة.. ظلّ يُحدق فيهم قبل أن يُديرهم ظهره صاعدًا الحفرة التي حفروها قائلاً بلهجة عجيبة:

يبدو أن الامر لن يُفلح.. لن يُفلح الأمر هكذا.. إننا في حاجة إلى دم بشريّ!

***

-لقد فقدتم عقولكم بلا شك.. لن أشترك أبدًا معكم في هذه الجريمة؛ ولو وعدتموني بمال قارون نفسه!
قالها "منصور" حانقًا..

كانوا قد اجتمعوا بعد صلاة العصر في اليوم التالي لمناقشة الأمر.. رحل الشيخ "هلال" أمس؛ بعد أن أفهمهم أن الرَّصد الذي يحمي



الكنز لن يُنهيه، إلا دمًا بشريًّا طازجًا.. أخبرهم أن عليهم أن يفكروا بالأمر، ولو قرروا الاستمرار فعليهم أن يُخبروه.

كان الأمرُ عسيرًا.. وفي وقت آخر كان من المستحيل أن يفكروا في ارتكاب جريمةٍ كهذه أبدًا.. لكن الأمر الآن أصبح مختلفًا.. كان هناك حلم الكنز الذي سينتشلهم من فقرهم وبُؤسهم.. وكان الحلم يُسيطر تمامًا على تفكيرهم جميعًا..

أدركوا أن عليهم أن يرتكبوا جريمةً بشعة.. لكن المقابل هو حلم الثراء السريع والغد الأفضل..

ظلوا يُفكرون في الأمر.. جريمة قتل واحدة مقابل حياة جديدة يعيشونها.. كان الأمر صعبًا.. لكن بداخل كل منهم أدركوا أنه ليس بمستحيل..

وقال "عيد" بصوتٍ كالفحيح:

-لكنكم رأيتم كيف تحرك الحجر حين تذوق طعم دماء الكلب.. ربما لو كان دمًا بشريًّا كما قال الشيخ "هلال" لانزاح تمامًا..

إلا أن "عبدالسلام" قال بخوف:

-لكنها جريمة قتل.. لو اكتُشفَ أمرُنا فلن ينفعنا الكنز أو غيره.. سيكون الإعدام مصيرنا جميعًا.

وارتجف الآخران لسماع لفظة الإعدام، فقال "منصور" بصوت



مرتفع:

-ومن قال إنني سأشترك معكم.. لقد اكتفيت بما حدث بالأمس.. افعلوا ما يحلو لكم، لكن بعيدًا عني!

إلا أن "عيد" قال له بعصبية:

-إنك مشتركٌ معنا بالفعل.. وليس من حقك أن تنسحب الآن!

شعر منصور بالدم يحتشد في رأسه، فقال باستنكار:

-أنت تُخرف.. لستُ مشتركًا ولن أكون معكم في هذا الأمر.

وقال "عبدالسلام" له مُهدئًا:

-اهدأ يا "منصور".. لا أحد هاهنا يُرغم الآخر على فعل شيء لا يُرضيه.. إننا هنا لنرى ما علينا أن نفعله..

هتف "عيد"، وقد بدأت مثانته تستغيث من البول الذي احتشد بداخلها:

-الأمر سهل.. إما أن ننسى الأمر كليًّا ويعود كل منا إلى حياته السابقة، وإما أن نقوم بقتل أحدهم للحصول على الكنز كما يزعم الشيخ "هلال".. الأمر لا مجال للتفكير فيه.. فقط علينا اختيار مصير ما.

ثم شعر أن مثانته لن تحتمل أكثر فنَهض مُسرعًا ليُفرغها خلف بيت "عبدالسلام".. وبعد أن عاد قال لهم:

-انظرا.. أعلم أن الخيار صعب.. لكننا جميعًا نتوق إلى الكنز.. إننا بالفعل لا نعيش مثلما يعيش كل البشر.. جميعنا في حاجةٍ للنقود لكي نحيا حياة حقيقة.. ولو اخترنا هذا فمعناه أن نقوم بجريمة صغيرة.

صرخ "منصور" وهو يُطلق من حلقه صوتًا مُستنكرًا:

- جريمة بسيطة؟.. ماذا تقول يا أحمق.. ومتى صار القتل جريمةً بسيطة؟

احتفظ "عيد" بهدوئه وهو يُجيب:

-نعم!.. ستكون بسيطة لو اخترنا الشخص المناسب.

كان كلامه غريبًا فقال "عبدالسلام" بحذر:

-ماذا تعني بالشخص المناسب؟

-أعني أن نختار شخصًا ما لا يهتمّ أحدٌ ما بموته أو حياته!

تطلعا إليه بدهشة، وحكَّ "منصور" شعره محاولاً استنباط مقصده دون جدوى، فأكمل "عيد":

-إنني أفكر في "أيمن العبيط".. ما رأيكم؟..

فهموا قصده على الفور.. كان "أيمن العبيط" أحد مجاذيب القرية.. صبيّ فاقد العقل لا يتعدى الخامسة عشر من عمره.. لا أحد يعلم من أين أتى، ومن يكون أهله.. ففي يومٍ ما ظهر بالقرية



يتسوّل الطعام ولم يُفارقها بعدها..

بدا على الاثنينِ التردُّد.. وقال "منصور" بإشفاقٍ غير حقيقي تمامًا:
-هذا حرام.. إنه مجنونٌ ومسكينٌ.

لكن "عيد" اشتمّ في صوته عدم جدية حقيقة في إشفاقه فقال بحماسٍ:
-ومن قال إنني أرى غير ذلك.. نعم! إنه مسكين تمامًا.. بل ويحيا حياةً أقل من حياة البهائم.. لو راقبتما حياته لوجدتما إنها مُعاناة لا تنتهي.. بحثٌ دائمٌ عمن يُطعمه وجوعٌ لا ينتهي، وتعذيبٌ دائمٌ من الأطفال وغيرهم له.. صدقوني الموتُ له خيرٌ من الحياة.. الموتُ نوعٌ من الرحمة له.

لم يكن منطقه مقنعًا أبدًا.. كانا يُدركان أن ما يقوله هراءٌ.. فحتى لو كان الموت خيرًا لهذا المتشرد؛ فمن هم ليقوموا بقتله.. لكن حلم الثراء المنتظر كان قد صنع سحابةً كثيفةً على عقولهم فغابت ضمائرهم.

وأطرق الاثنان برأسهم لأسفل.. وفهم "عيد" أنهما موافقان.. فقال بظفر:
-إذًا لنقوم سويًا بالأمر الليلة!

***



تطلع الشيخ "هلال" برضا إلى جسد "أيمن" المربوط أمامه وقد راح صاحبه في سباتٍ عميقٍ، ثم قال وتعبيرٌ شيطانيٌّ يلتمعُ في وجهه:

-أحسنتم يا رجال هذه المرة، إنه الشخص المناسب بالفعل.

كان "عبدالسلام" قد استدرج "أيمن" بعد صلاة العشاء إلى داره، وقد أغراهُ بإطعامه فتبعه "أيمن" بلهفة.. ثم حرص "عبدالسلام" على اتخاذ طرق جانبيه كي لا يراهما أحدٌ ما سويًّا.

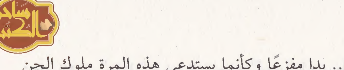
أما "منصور" فقد أحضر أقراص المنوم التي تتناولها زوجته، والتي تعاني من ارتشاحٍ رئويٍّ قويّ وتحتاج إلى منوم كي تسطيع النوم.. ثم قام الاثنان بدسّ تلك الأقراص في حساء اللحم ثم قدماها لـ "أيمن".

أكل "أيمن" بشهيةٍ حقيقةٍ، وبعد قليل راح في ثباتٍ عميقٍ. وقال الشيخ "هلال" لهم:

-هيا بنا نحو الحفرة لننهي الأمر!

حملوا "أيمن" بصعوبة، وأدخلوه الحفرة التي حفروها بالأمس.. ثم تراجعوا.

وتقدم الشيخ "هلال" بلا ترددٍ حاملاً السكين الغريب الذي ذبح به الكلب بالأمس.. وتعالى صوته هذه المرة بالتراتيل الغامضة



التي يتلوها.. بدا مفزعًا وكأنما يستدعي هذه المرة ملوك الجن أنفسهم..

شعروا بالرعب.. وبدا وكأن المكان صار يعجّ فجأة بكيانات خفيّة تُحيط بهم من كل جانب..

تقدم الشيخ "هلال" من "أيمن" وجذب عنقه نحو الصخرة وبلا تردد قام بذبحة بالسكين.. لاحظوا برعب الانتفاضات العنيفة التي يقوم بها جسد "أيمن" المذبوح مُحتجًّا.. إلا أن ما أثار رعبهم حقًّا هو الصخرة.. بدت عطشى للدماء الغزيرة التي تسيل من عنق "أيمن" المقطوعة.. كانت تتشربها بنَهَم.. ثم بدأت الصخرة في الاهتزاز ومعها تعالت تراتيل الشيخ "هلال" الشيطانية..

وأمام عيونهم المذعورة ارتفعت الصخرة قبل أن تنزاح جانبًا، وهنا خرج منها شبحٌ أسود.. شبحٌ من دخان بعيون مشتعلة ووجه كالكابوس.

بال "منصور" على نفسه.. وسقط "عبدالسلام" مغشيًّا عليه.. وراح "عيد" يرتجف، وهو يُحاول أن يتذكر أي آية من القرآن ليقرأها.

وتعالى من الشبح صوتٌ مخيفٌ عميق يقول:

-لقد صدقتنا أيها البشريّ.. لقد أعدتنا كما وعدت؛ فلك منا العطايا التي لم تحلم بها.



وازدادت ابتسامة الشيخ "هلال" وهو يُشير إلى الثلاثة قائلاً:

-وهاهم قرابينُك يا سيدي!

وعاد الشبح ليقول برضا:

- وقد قبلنا قرابينك أيها البشري.

وفجأةً امتلأ الفراغ بعشرات الأشباح المُخيفة.. التفّوا جميعًا حول الثلاثة.. وكان الألمُ عنيفًا كما لم يتخيل الثلاثة، ولكن الألم كان هذه المرة بلا صراخ.. فألسنتهم كانت أول شيءٍ حصلت عليه تلك الكائنات الشيطانية.

وبالخارج كان الشيخ "هلال" يسير منتشيًا؛ وصوتٌ شيطانيّ يتردد في أُذُنه:

-لك منّا العطايا العظيمة أيها البشري.. إن "شهربام" راضٍ عنك كل الرضا...

فأبشر!





ساحرات الهالوين



في تلك الليلة قالت أمه بإشفاق:

-"دعك من خيالاتك، السحَرة والمسُوخ والأشباح مكانهم الحكايات والقصص حول النار في المساء".

بينما نظر أباه بسخريةٍ إلى ثيابه التي رأى أنها تشبه المُهرجين في السيرك وقال:

-"حمارٌ أحمقٌ، هذا هو أنت في كل شيء، في تفكيرك وفي أفعالك".

ثم أشار نحو حجرة نومه، وقال بوجهٍ مُتجهّم:

-"اذهب من أمامي أيها الصبي، واخلع عن جسدك تلك الملابس السخيفة، لا أريد أن يراك أحدٌ من الجيران ليقول لي إنني قد أنجبتُ مُهرجًا".

وفي حجرته لم يخلعْ عنه الملابس؛ بل ارتمى على الفراش في ضيقٍ وهو يفكر، لماذا يُصر الاثنان على إحباطي".

ظهرت أخته التي تصغره بعامين "أمنية" ونظرت إلى ملابسه بانبهارٍ وهتفت:

-"من أين أتيت بتلك الملابس، إنها رائعة"

لم يرفع رأسه، وأجاب بهَمٍّ:



-"أخبري أبيكِ بهذا"

جلست الي جواره، وتحسَّست الملابس بشغفٍ وقالت:

-"لماذا ترتديها؟"

أجاب بحماسٍ، وهو ينهض ويدور حول نفسه:

- "إنه الهالووين؛ هذا اليوم... السَّحرة في كل الغابات تُراقب البشر، وتنتظر الشياطين، وتختار الأتباع من بين الصغار.

لم ترفعْ أمنية رأسها عن الملابس التي يرتديها؛ حرملةٌ طويلةٌ من اللون الفضّي اللامع، وطاقية كبيرة كتلك التي يرتديها السحرة في سبيس ستون، وغمغمت:

-"وهل تُريدُ أن تكون ساحرًا؟"

رمَقَهَا للحظة وبرقت عيناه ثم همهم:

-"يومًا ما سيعثر عليَّ الساحرُ أو الساحرة الذي سيعلمني السحر، وبعد أعوام ليست بالطويلة سأنتقل للعيش في الغابات وأكون أعظم ساحر رأته الأرض".

كانت تؤمن دومًا بكل ما يقوله، وعجز عقلها الصغير عن انتقاد أفكاره؛ فقالت بانبهار:

-"وبالطبع ستأخذني معك لأكون ساحرة مثلك".

لكنه قال لها في خشونةٍ وتكبُّر:



-"لا تصلحين بالطبع لأن تكوني ساحرة! السحرة يولدون والسحر في دمائهم، فقط ينتظرون من يُرشدهم ويُعلمهم التعاويذ".

غضبت من كلامه وبدأت تبكي وقالت:

-"إذًا سأُخبر ماما أنك ترفض أن أهرب معك وأن أكون ساحرة مثلك".

نظر حوله في توتر وغطى فمها بكفه وقال بسرعة:

- "اصمُتِي يا حمقاء! هذا سرنا الصغير؛ إياكِ أن تُخبري به أحدًا وخاصةً أمنا أو أبانا، ربما لا تصلحين لأن تكوني ساحرة، لكني سوف أجعل منكِ مساعدتي الشخصية".

صفّقت "أمنية" في فرحٍ وهتفت:

-" أوافق "!

في المساء، وفي وقت متأخر من الليل، تسللت سحابة في السماء حتى وجدت القمر؛ فحجبته عن الأرض ليغيب الضوء، ومن الأفق الأسود، برزت مقشات ثلاث تمتطيها ثلاث ساحرات شمطاوات عجوزات، داروا في الهواء بالمقشات ثم أشارت قائدتهم، نحو نافذة الفتى ودمدمت بفم بلا اسنان:

-"هناك يا أبناء الظلام"!

انطلقوا إلى النافذة الزُّجاجية المُظلمة المقفولة، فرَفَعت الساحرة



الأولى بإصبعين فانفتحت النافذة لتعبُرها الساحرات الثلاث، وفي الحجرة التي نام فيها الصبي بملابس ليلة الهالوين، وعقله يسبحُ في أحلام حلوة عن عالم من السحر سماؤه ورديةٌ، وبيوته تعرف الحديث، وعرباته تتحركُ من تلقاء نفسها بلا حاجة لمن يقودها، وفي هذا العالم كانت الأشجار تنحني له وتقول له في خضوع:

-"أنت مولانا الساحر الأعظم"

أيقظته الساحرة الأكبر برفق وهي تهزُّ قدميه، وحين فتح عينيه كادت صرخةٌ تنطلق من فمه وهو يرى الساحرات الثلاث حول فراشه، لكنه كتَمَ الصرخة، وتمالك نفسه وقال بصوت مخنوق:

-"من أنتن؟"

قالت القائدة وهى تحك دمل كبير في أنفها:

-"إننا الساحرات اللاتي كنت تنتظرُهن، هل نسيت أيها الصبيّ، أم خفت منا وتريدنا أن نرحل"؟!

ثم التفت إلى أختيها، وقالت:

-"أوه يا أختاي، يبدو أننا أخطأنا المكان، وجئنا إلى صبيّ آخر، دعونا نرحل قبل أن تسأم السحابة وتبتعد عن طريق القمر"

ركبت كل واحدة منهن مقشتها، وهزَّتها لتستعد للطيران، لكن الصبي تغلب على خوفه تمامًا، وقفز من فراشه، وهتف:



-"كلا، لا تذهبن"!

فابتسمت الساحرات في رضا...

ما وجدته الشرطة في الصباح كان عجيبًا، الأم راقدة على فراشها وهي ترمق سقف الحجرة بعينين مفتوحتين ميتين، لكنها كانت تبتسم، لكن الأمر الأكثر غرابة كان الأب، حيث كان لسانه مقطوعًا وعينيه قد اقتلعهما شيء ما مخيف، أما ملابسه فكانت غريبة تمامًا لرجال الشرطة، كانت ملابس مهرج!

لم يكن هناك من أثر للصبي أو أمنية أخته الصغيرة، فقط كانت نافذة حجرة الصبيّ مفتوحة تمامًا للسماء، كانت الشائعات كثيرة، هناك من قال إن طقسًا سحريًا كان يتم في البيت، وقد سرق الشياطين الأبناء، وتركوا جثة الأبوين، وهناك من قال إنه الصبي الذي كان أبوه دومًا يسخر منه ويُعاقبه طوال الوقت، لقد قتل أبويه وهرب بأخته، وهناك من قال إن الإبنان اختطفهما القاتل كي يبيعهما للعصابات التي تتاجر في الأعضاء.

لكن صبيٌّ يتمتع بالخيال كان قد رأى في تلك الليلة شيئًا غريبًا من خلف زجاج نافذته؛ حين كان يبحث بعينيه عن القمر، رأى ثلاث ساحرات يمتطين المقشات، ويَطِرن نحو السماء، وخلفهن صبي صغير وأخته، حكي في الصباح على الإفطار ما رآه لأبويه، زجره أبوه بعد أن سخر منه وهمست أمه في إشفاقٍ:

"الساحرات يعشْن في الحكايات والقصص ولا وجود لهن في عالمنا هذا"!

لكنه كان أكثر من يعلم أنهن موجودات في مكان ما، وربما كان محظوظًا ليراهُن في عيد الهالوين القادم.





زوجتي الحبيبة



تدحرَجَ الرأس المقطوع أسفل قدميه ليدرك أنه لا خطّ رجعة بعد الآن. رمَقَ نافورة الدماء المندفعة من العُنُق المبتور للجسد الذي ما زال ينتفض، وهو يتراجع للخلف كي لا تصيبه الدماء، وهو يفتش في نفسه عن أي إحساس بالندم أو الذّعر أو الخوف أو أي شعور من المفترض أن يُراود أيّ شخص ذبح زوجته للتوّ.

لم يعثر في نفسه على أي شيء من هذا؛ بل كان هناك شعور غريب بالراحة والفرحة، لو جاز لنا أن نصدق هذا.

هذا غريب؟!

تنهّد للحظة، ثم حانت منه التفاتةٌ نحو باب الحجرة، يا لحماقته! كيف نسي أن يُغلقه. والآن ها هو طفله هناك واقفًا يُراقبه في هدوءٍ مُثير بوجهٍ لا أثر للعاطفة على سطحه، نظر إليه في توتر وهو يتساءل، لماذا لا يصرخ الطفل أو ينتحب أو حتى يندفع نحو جسد أمه الصريع ليحتضنها؟ لماذا لا يقوم بأي فعلٍ من الذعر يتناسب مع يراه أمامه الآن. لا يدري!

رفع الطفل عينيه بعيدًا عن الرأس المقطوع لأمه، ونظر في عينيه بثبات، كانت عيناه تلتمعان بغلالة رقيقة من الدموع، لكن دمعة لن تنزلق منهما، فكر في أن يقوم بأي ردة فعل عاطفية نحو طفله؛ هل يندفع نحوه ويحتضنه؟ هل يهمس في أذنه أن كل شيء سيعود



كما كان؟ هل يحاول أن يُبرر له سبب ما قام به؟ أم أن عليه أن يُفكر في إظهار بعض الندم أمامه، وأن يحاول أن يُقنعه أن ما قام به رغم بشاعته كان خطئًا اقترفه في لحظة جنون؟

في الواقع لم يفعل أيًا من هذا، ومرارًا ارتجفت شفتاه وانفرجتا لتقولا أي شيء مهما كان سخيفًا، لكن الكلام كان يتبخّر قبل أن يُفارق فمه، تجمد هو الآخر مكانه، وعاد لينتظر للطفل الذي راح يرمُق رأس أمه المبتور ثانية، نظر للرأس فعلم أن وجه زوجته ينظر الطفل.

قاوم توتره وانحني نحو الرأس؛ رأى الوجه ورأى أن العينان المفتوحتان لآخرهما كانتا في مواجهة عينا الطفل، بدا وكأن العينان المتجمدتين كأعين السمك النافق تُبادل عينا طفله حديثًا صامتًا، قرر أن هذا يكفي، يجب أن يرحل الطفل الآن، رفع كفه بوَهَن غريب، وكأنما قد فارقته قواه بغتةً، لكن الطفل تحرك من تلقاءِ نفسه فاستدار بهدوء وتوارى في ظلام الردهة خلفه.

-"يا إلهي! هذا أفضل"

زَفَرَ بارتياح، وقلبه يدقّ بتوتر فأخرج من جيبه علبة سجائره وأشعل واحدةً منها، راح يدخن ببطءٍ وهو يطرد توتره مع الدخان الذي يطرده صدره، انتهت السيجارة ليتـ.. للعمل الكثير الذي عليه أن يقوم به الآن بلا تأخير.

من حسن حظه أن بيته في أطراف القرية؛ فلن يشعر أحد حتمًا

بما جرى، ومن حسن حظه أن البيت لا يقطنه أحدٌ غيره. ومن حسن حظه أنه يمتلك تلك الحديقة الصغيرة أمام البيت، بدا وكأن كل شيء كان مرتبًا لإخفاء معالم الجريمة، ولو إلى حين. يجب أن تختفي الجثة، يجب أن ينظف الدماء، ثم عليه أن يفكر بشأن الطفل بعد ذلك، نظر مرة أخيرة للجثة الغارقة في بركة الدماء اللزج وتحرك.

***

انتهى وأول أشعة الفجر يتسلل خلسةً عبر الأفق المظلم، وحين عاد للبيت ثانية كان السكون تامًّا، دخل حجرة الطفل فرأى أنفاسه المنتظمة التي تشي بنوم هادئ. تحرك نحو الحمام وبدأ في خلع ملابسه ليزيل عنها الغبار والدماء، وقف في البانيو وراح الماء الساخن يغسل ما علق على جسده من أثر الخطيئة، انحدر الماء متربًا محمرًا بأثر الوحل والدماء، وراح يتدوّم حول ثقب البالوعة قبل أن تمتصه في شهوة، انتهى من حمامه مستعيدًا بعض النشاط، غادر البانيو والتقط منشفة جفف بها جسده، ثم ارتدى ملابس داخلية نظيفة كانت معلقة على المشبك.

هنا سمع صوت زوجته في الصالة تصرخُ في وجه طفله وتُطالبه أن يُجمع لعبهُ وأن يذهب إلى فراشه، كانت تحتج بأن الوقت متأخرٌ للغاية ليكون خارج فراشه، هل يكون من يصرخ حقًّا هي زوجته التي قتلها منذ قليل؟ هنا انتبه لشيء آخر، من الذي جلب له تلك



الملابس الداخلية النظيفة وهو متأكا أنه لم يفعل؟!

***

كانت الصالة مظلمة خاوية، هَرَعَ نحو حجرته فوجدها كما هي، ومازالت بعض رائحة الدم الصَّدِئ عالقة بها، اندفع نحو حجرة ابنه الوحيد فوجده نائمًا بجوٍّ ملائكيّ هادئ، كان متأكدًا أنه سمع صوت زوجته وابنه منذ قليل، لكنه أكثر من يعلم أين تكون زوجته في تلك اللحظة، كما يرى أن ابنه مازال في فراشه كما كان منذ خلد للنوم، هل كان يتخيل ما سمعه؟ ربما، في النهاية ما فعله منذ قليل كفيل بأن يُذهب بعقله نفسه، عاد لحجرته وفتح النافذة كي يُجدد هوائها المكتوم المشبع برائحة الدماء، وأشعل سيجارةً راح يُدخنها بشراهةٍ وهو يفكر فيما فعله.

لقد أقدمَ منذ قليل على قتل زوجته التي عاشت معه لأكثر من سبع سنوات، الغريب أنها كان مشاجرة عادية، نسي الآن سببها ولا يدري كيف تطور الأمر حتى أنه ذبحها؟ الأكثر عجبًا أنه لا يشعر على الإطلاق بأيّ ندم على ما فعله؛ بل يشعر براحة غريبة، أما الأكثر رعبًا فهو أنه شعر ًبالاستمتاع بكل ما فعله بها، ولا زال يذكُر كيف انتشى قلبه، ورأس زوجته يُفارق عُنُقها ويتدحرج أسفل قدميه؟

في النهاية غلبَه التعب فنام على الفراش؛ مضت لحظات حتى شعر بما يندفع نحو الفراش ويلتصق به راقدًا بجواره، وبين النوم



واليقظة شعر بدفء جسد زوجته الذي اعتاده لسنوات طوال، هنا ذهب النوم من عقله، وصرخ قبل أن يفتح عينيه وهو يتخيل أن تكون بجواره.

لكنها لم تكن زوجته، بل كان ابنه الذي تكوَّم بجانبه، ونظر إليه بهدوء دون أن تعكر صرخته صفو وجهه، وبينما نبض قلبه وأراد أن يسأل الفتى لماذا أنت هنا؛ وجد الفتى يجيب بلا سؤال:

" أريد أن أنام هنا بجوارك، أنا خائفٌ!"

***

تسلل عطرها نحو أنفه، فابتسم خلال نومه في غموض، ودارات عشرات الخيالات المُبهجة في الحلم، وبين الحلم واليقظة راحت تدعوه ليستيقظ من خارج الغرفة، فأجاب بلا تفكير:

-" أممم، أنا قادم!"

"إذًا أسرعْ قبل أن يبرد الطعام"

يستيقظ ويحكّ عينيه ليزيح منهما أثر النوم، يتحرك في آلية نحو الحمام ليغسل وجهه، وما أن يسقط الماء البارد على وجهه حين يفيق تمامًا، هنا ينظر لنفسه في المرآة في بلاهة، وهو يرى عشرات الأخاديد تملأ جبهته، مَن تلك التي دعته الآن للإفطار وهي تستعجله وقد قتل زوجته بالأمس؟.

نبض عقله فأسرع نحو الصالة، وهناك كان الطفل يجلس إلى



المائدة في هدوء، وهو يتناول شطائر الإفطار، في الناحية الأخرى كان نصيبه من الإفطار موجودًا، حتمًا هو لم يُعد هذا الإفطار، وكذلك الطفل، فمن أعدَّ هذا الطعام؟ طرح هذا السؤال على الطفل، رفع ابنه عينيه نحوه في صمت، وواصل مضغ ما في فمه، اقترب منه تمامًا حتى صار وجهه في وجه الطفل وقال بقسوة:

-"لقد ألقيتُ سؤالاً"

رَمَقَهُ الطفل بلا ذرة خوف واحدة وأجاب:

-"إنها ماما بالطبع!"

***

لم يذهب للعمل اليوم، وقرر أن يمضي يومه كله بالمنزل، هناك خدعةً لعينةً تدور في جنبات هذا البيت، هناك من يعبث به، لكن السؤال هل يشترك طفله ذو السنوات الخمس في تلك اللعبة؟ ولماذا لا يبدو على وجهه أيّ أثر لفقدان أمه التي شهد مقتلها؟ الطفل يُمارس نشاطه اليومي كالعادة.

يدقُّ الباب فيذهب له ويفتحه، كان صبيّ توصيل الطعام، ينظر للّفافة التي تفوح منها رائحة الكباب الساخن المثيرة، ويرمق صبي التوصيل الذي قال:

-"الطعام الذي طلبته"

-"لم أطلب شيئا؟!"

-"لكن زوجتك فعلت. هذا هو العنوان المُدون في أوراقي ومن اتصل بنا تدعي "هدى"، ألا تُدعى زوجتك بهذا الإسم، كما أن رقمها هو 010923543"

كان الرقم سليمًا وكذلك اسم زوجته، كان عقله يذوب، لكنه اندفع للداخل كي يجلب ثمن الطعام الذي لم يطلبه، وحين عاد لم يكن صبي التوصيل هناك، كان الصبي يستعد لركوب الدراجة النارية، ولا أثر للفافة الطعام في يده، صاح فيه:

-"نقودك"

-"لقد دفعت زوجتك الحساب!"

هرع للداخل لتصطدم بأنفه رائحة الطعام المُعد في الأطباق مع أكواب البيبسي على المائدة، وفي مُنتصفها كانت هناك بطاقة مكتوبة بخط يد يعرفه تمامًا؛ خط زوجته وكانت تقول:

-" لم أنس طعامك! نفس الكباب الذي تحبه من نفس المحل. أحبك".

إما أنه قد جُن أو أن هناك من يعبث بعقله، دار في البيت ليُفتش عن أي غريب مختبئ فيه، لا أحد غيره إلا الطفل الذي ينتقل للمائدة ليتناول الطعام في هدوء كالعادة، تتلاحق أنفاسه ويُصيب عقله الدوار ثم تظلم الدنيا ويفقد الوعي.

***



حين أفاق كان الليل قد جاء؛ الطفل يشاهد قناة الكارتون في استمتاع، ولا أثر للطعام على المائدة، شرب بعض الماء قبل أن يُفكر في احتمال مخيف؛ هل كان يحلم أنه قد قتل زوجته؟ وهل مازالت حية؟ لكن لو كان هذا صحيحًا فأين ذهبت؟ يشعر أن الطفل متورط في تلك المكيدة التي تُحاك له، كان هذا وقت الغضب، يندفع نحو الطفل ويحمله من أمام التليفزيون، ويضعه على المائدة أمامه ويسأله:

-"والأن ستخبرني بالحقيقة."

يرمقه الطفل بعيون لامعة لا تعي بلا شك ما يقوله، فيصرخ فيه:

-"أي لعبة قذرةٍ تُدبرها معهم ضدي؟"

مرة أخرى لا يرد، يهزّه بعنفٍ لكن الطفل لا يشكو، فيقرب وجهه منه حتى يلتصق الأنفان معًا ويقول:

-"إذًا أخبرني من يُعد الطعام؟ إنها أمك أليس كذلك؟"

ظل الطفل صامتًا، هنا يبدأ في صفع الطفل، لا يحرك الطفل وجهه ليُبعده رغم عنف الضربات وهو يرمقه بثبات، يضطرب قلبه ولا يدري بنفسه إلا وهو يحمل الطفل ويقذفه بكل قوته نحو الحائط، تصطدم الراس بالجدار وتتفجر بالدماء ومعها بعض أجزاء من عظام الجمجمة ومخ الطفل، قبل أن يرقد الطفل أسفل الحائط في سكون، يرمق الطفل وقد أدرك أنه قد ذهب هو الآخر، لكنه رحل



قبل أن يُمده بالحقيقة، يهرع نحو المطبخ ثم يخرج منه حاملاً الفأس، ويتجه للحديقة بالخارج.

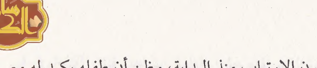
***

حين قام بالحفر في المكان الذي دفن فيه الزوجة كان متأكدًا من أنه سيعثر على دليلٍ ما يحل كل تلك الألغاز، كان مساءً جميلاً وقد انتشرت فيه رائحة الياسمين والفل الذي زرعه حول سور الحديقة، راح يواصل الحفر حتى تظهر الملابس، انه يقتربُ من حل اللغز، أكمل وهو يُزيح المزيد والمزيد من التراب، وفي النهاية باحت الحفرة بأسرارها له ككتابٍ مفتوح ينتظر من يقرؤه، نظر داخلها ففهم.

ومن خلفه اشتعلت الموسيقى الراقصة التي اعتادت زوجته أن تتمايل وترقص عليها له، وحين نظر للظلال الواضحة خلف النافذة المسدلة الستائر أدرك أنه الجسد المميز لزوجته وهي ترقص.

***

كان ملخص التقرير الطبي المتعلق بحالته في المصحة النفسية أنه يُعاني جنون ما بعد الصدمة، لقد قتل الطفل أولاً وحين احتدَّت الزوجة قتلها هي الأخرى، ثم وَارَى الجثتين في التراب سويًّا في حفرة واحدة، بعدها راح يتخيل أنهما مازالا هناك يعيشان معه، لقد



كان يُعاني جنون الارتياب منذ البداية، وظن أن طفله يكيد له مع أعدائه المتربصين له حتى قتله.

اعتاد الكل أن يراه في المصحة وهو يُحادث أشباحًا خفيةً لزوجته وابنه، يضحك معهما، يصرخ فيهما، وأحيانًا كان يصرخ وهو يُبدي الندم على ما فعله، كل هذا كان مألوفًا في المكان، كل هذا قد يصدر ممن فقد عقله، لكن الأمر غير المألوف هو ذلك الطعام الذي كانوا يجدونه أمامه بغتةً، وخاصة الكباب المشوي الساخن.

وظل السؤال الدائم للجميع في المصحة؛ من يجلبُ له هذا الطعام، لكنه كان يبتسم حينها في رضا ويُجيب:

-"بالطبع هي زوجتي الحبيبة!"



أبانوخ



في عامٍ واحدٍ تغيّر كل شيء في حياة "موسى الصعيدي"..

بدأ الأمر حين استيقظت "فتحية" - زوجته البدينة - في الصباح لتجد أن الجاموسة الوحيدة التي يملكونها قد نفَقَتْ فجأة.. ملأت الدنيا صراخًا كأنما من مات هو ابنٌ لها.. بينما هبَّ هو من فراشه الذي كان في الواقع سطح الفرن البلدي، ليرى إن كانت الجاموسة قد ماتت فعلاً أم مازال فيها رُمقٌ ما يجعلها صالحة للذبح للاستفادة بلحمها..

لم يستطع منع "فتحية" من الصراخ وهى لا تصدق ان الجاموسة "العشار" قد ماتت فجأة.. وقد كانت تعول عليها كثيرًا في الاستفادة من بيع جنينها بعد أن يكبر ويسمن.. ومن بيع ما تُدره عليهم من لبن.. كانت قد باعت مصوغاتها البسيطة كلها كي تشتريها.. والآن فقدت الجاموسة وفقدت بالطبع مصوغاتها.

أرغم نفسه على الرضا بقضاء الله، بل وتوضأ يومها ليصلي ركعتي شكر لله..

وبعد شهر واحد من موت الجاموسة، أصيب ابنه الأكبر "إسماعيل" بالحمى.. ثم امتلأ جسد الطفل كله بالغُدد المتورمة.. لجئوا لعم "إبراهيم التمرجي".. فاخبرهم أنه مصاب ب "اللوز" وكتب لهم بعض العقاقير والحقن.. لكن "إسماعيل" لم يتحسن، وبدأ في



القيء، وظل جسده محمومًا.. هنا قرر "موسى" ان يذهب به إلى الطبيب هذه المرة.. فحص الطبيب فم الولد وأنفه وأذنه وبطنه وظهره.. قبل أن يخط قائمة مليئة بالتحاليل، دفع فيها "موسى" كل ما معه من نقود.. وفى النهاية أخبره الطبيب أن ابنه مصابٌ بسرطان الغدد الليمفاوية، وأن حالته قد تأخرت ولم يعد العلاج ممكنًا..

لم يفهم "موسى" معنى الغدد الليمفاوية.. لكن كلمة سرطان كان يدرك معناها اللعين بالفعل.. وبعد خمسة وخمسين يومًا مات "إسماعيل".. مرة أخرى رأى أن الامر لا يعدو أن يكون ابتلاءً آخر من الله..

ألم يعِد اللهُ المؤمنين بالابتلاء والشدة كي يمتحن إيمانهم؟ سوف يصبر وسوف يُصلي لله شكرًا على ما أصابه ليُبرهن على إيمانه!

بعدها بعشرة أيام سقطت "سنية" ابنته من فوق سطح البيت أثناء إطعامها للدجاج.. حملها وهي تصرخ من الألم وقد برزت مقدمة عظمة الفخذ بعد أن مزقت جلدها وسروالها.. احتاج الأمر لعملية جراحية لإعادة العظمة المهشمة لمكانها.. هنا كان عليه أن يستدين مرة أخرى، من أجل أجر الطبيب، وتكاليف العلاج..

وفى المساء كانت فتحية تُولول وتتحدث بكلامٍ لم يعجبه.. كانت تناجي الله وتسأله لماذا يفعل كل هذا معهم؟

وإن كان ابتلاءً؛ فلماذا هم فقط من كُتِب عليهم الابتلاء، وهناك



"جمالات" جارتهم وزوجها العامل بشركة البترول الذي يتقاضى عدة آلاف من الجنيهات كل شهر.. هذا غير الفدادين السبعة التي يمتلكها.. لماذا لا يُعطيهم هم الآخرين بعض الابتلاء ويصرفه عنها وعن زوجها؟.. على الأقل هم أغنياء وقادرون على تحمل تكاليفه.

زجَرَهَا "موسى" بغلظة وأخبرها أنها مثل جنسها.. ناقصات عقل ودين.. إن اللهَ إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه.. وإن ما يحدث له لا يعني إلا أن الله يخبئُ لهم -ولا ريْب- خيرًا كثيرًا..

صمتتْ "فتحية" بعدها في غير اقتناع خوفًا من بطشه.. لكنه وبداخله راح يُحاول بكل إيمانِه أن يُخمِّد الصوت الهامس الذي راح يتعالى..

هل يبتليه الله حقًّا أم أنه غاضب منه؟!

فشل في إجابة هذا السؤال المُلح فسأل شيخ الجامع الضرير.. الشيخ فتحي.. حَوْقل الرجل وبسْمَلَ، وأخرج منديلاً مبقعًا من جيب جلبابه، وبصق بداخلة قبل أنَ طويه ثانية ويُعيده لجيبه، ثم قال بطمأنينة:

-يا بني، حين ابتلى الله أيوب وأفقده داره ولأبنائه وصحته، لم يسأل ايوب نفسه هل كان هذا غضبٌ أم ابتلاء.. بل صبر صبرًا جميلاً حتى أزال الله عنه كربه.



وأطرق الشيخ برأسه للحظات، ثم تنهَّد مستطردًا:

-اصبر يا "موسى" وأكثر من الدعاء والابتهال لله.. ولا تنس الصدقة.. تصدق كثيرًا لتطفئ غضب الرب.

اطمأنَّ قلب "موسى" بعدها.. وانصرف لزوجته التي وجدها جالسة في الفناء الطويل لداره وبين ساقيها إناءٌ ضخمٌ ترصُّ بداخله أصابع غليظة من المحشي..

قال لها بهدوء:

-"الشيخ متولي" أمرني أن أُخرِج صدقةً؛ عسى أن تدفع عنَّا بعضَ ما نلاقيه!

رفعت رأسها نحوه، وحركت أناملها الضخمة المُلوثة بالأرز المخلوط بالصلصة وقالت معترضة:

-وبماذا نتصدق؟.. لم يعد لدينا من الأموال شيء.

-لدينا ذلك الديك الضخم.. اذبحيه وأطعمي أربعة مساكين بلحمِه.

ارتفع صوتها حينها مستنكرًا:

-إنه الديكُ الوحيدُ بين الدجاجات.. إنه ضروريّ لتلقيح البيض.

-لا يهم هذا يا امرأة.. اذبحيه وتصدقي به.. وافعلي هذا اليوم قبل الغد.

ثم انصرف من أمامها دون أن يُعير اعتراضها اهتمامًا.. ثم راح يُكثر بعدها من الدعاء..

لكن أياما ثلاثة بعدها كانت تفصله عن كارثةٍ أخرى.

لقد أُصيب حماره الوحيد وكُسِرت إحدى سيقانه، حين تعثر وهو يحمله في إحدى الحفر.. كان يومها عائدًا من زيارة أخته بعد العشاء، وحتمًا لم يلحظ الحمار تلك الحفرة المظلمة فهَوَى فيها.. من حسن حظه أنه لم يُصب بالسوء من سقطةٍ كهذه.. لكن الحمار مات متأثرًا بجرجه.. الكارثة أن الحمار كان من يُعاونه في فلاحة أرضه وحمل الأشياء إليها..

ومرة أخرى عادت زوجته لتتساءل لماذا يغضب عليهم الله؟.. ولماذا لا يُصيب السوء والضر إلا بيتهم فقط؟.. بالطبع كان يزجُرها حينها، وهو يمنعها من الاندفاع في تجديفها هذا، والذي قد يصل بها إلى الكفر والعياذ بالله..

لكنها هذه المرة كانت أكثر شجاعةً من السابق، فلم تصمت وظلت تردد باكيةً:

-لماذا تفعل بنا هكذا يا رب؟!

رَقَدَ على الفراش مفكرًا وهو يُحاول أن يجد بعقله المكدود تفسيرًا ما لما يُلاقيه؛ هل حقًّا يبتليه الله أم أنه غاضبٌ عليه؟ أم أن الأمر غير كل هذا.. هل هي لعنة ما أصابته أم عملٌ سفليٌّ من أعمال



الشياطين صنعه أحدهم له؟

ورغم إيمانه القوي وكفره بكل أعمال السحر والشياطين وجد نفسه يُفكر في الاحتمال الأخير بجديّة.

فى الصباح استشار عم "مدبولي" الغفير.. رجلٌ مُسنٌّ شارف الثمانين من العمر، وعرف الحياة وخبرها، ولم يفته شيءٌ منها لم يره.. حكى له ما حدث من مصائب، فغمغم الأخير له بصوتٍ متحشرج ضاعتْ نصف حروف كلماته، بفعل سرطان الحنجرة الذي أصابه:

-في هذه الحالة ليس أمامك إلا "الشيخ عتمان".. إنه الوحيد القادر على مساعدتك.. لكن سوف يطلب منك الكثير.. أخبره أنني من أرسلتك؛ وربما خفَّض قليلاً من أجره.

***

عاد إلي بيته في المساء وهو لا يُصدق نفسه.. الشيخ "موسى الصعيدي" الذي لم تطأ قدمة يومًا بيت عرافٍ أو دجالٍ يذهب إلى كبيرهم المدعو ب "الشيخ عتمان".. بالطبع كان يؤمن بالسحر، ويُؤمن بقدرة البعض على التحكم في قُواه المظلمة من أجل جلب الضرر والأذى للبعض الآخر.. لكنَّ السحر كله كفر.. ومن عمل به كافر.. ومن استشاره كافر.. ومن آمن به كافر.. فكيف يستقيم إن يلجأ الآن لـ"الشيخ عتمان"؟!

ومَنْ بالناحية بأكملها لا يدري من يكون "الشيخ عتمان".. يُطلق عليه المتديّنون "الشيخ النجس" أو "شيخ الشيطان"، بينما يتبارك بقدراته الكثير من مريديه.. يزعمون أنه قادرٌ على الاتصال بملوك الجان، وأن يُسَخِّر الكثير منهم في أعمالٍ شيطانيةٍ قذرةٍ لمن يقدرُ على الدفع..

لكنه أقنعَ نفسه أنه في حُكم المضطر المُجبَر المُكرَه على زيارته.. جلس أمامه مُرتعشًا، على أرض مكسوة بسجادة قبيحة مهترئة، بينما كان المشعل يُطلق سحبًا كثيفةً من البخور والدخان.. وقال الشيخ العجوز بصوتٍ كله دهاء:

-هل جئتنا، وأنت تبغضنا يا "موسي"؟

تمالك "موسى" نفسه بصعوبة، لكي يُجيب رهبةً وخوفًا:

-أنا لا أكرهك يا "شيخ عتمان".. أنت رجل مبارك لك كرامات لا يُنكرها أحد، وإلا لما جئتُك!

ألقى "الشيخ عتمان" في الموقد بعض البخور الذي يقبض عليه بكفه، فتنطلق سحابةً جديدةً ويقول:

-لا أدري لماذا أشْتَمُّ الكذبَ في كلماتك؟.. سأحاول أن أتناسى هذا.. والآن أخبرني، ما حاجتك؟

قصَّ عليه "موسى" ما يحدث له.. وَجَمَ الشيخ حينها وتلاقى حاجباه الكثَّان، وأخذ يطلق همهماتٍ غامضة، وهو يُلقي على

الموقد بعض البخور لترتفع سُحُب البخور.. ظل صامتًا نحو دقائق خمس؛ وكانت مدةً كافية لكي يشعر "موسى" بالرعب والفزع، حتى أنه راح يُفكر في أن يعدو من المكان هاربًا، وخوفه يُصور لخياله وجه "الشيخ عتمان" القابعُ خلف الموقد والتي تنعكسُ عليه الأدخنة المتصاعدة كوجهِ شيطانٍ يُعد العدة لالتهام أحد ضحاياه!

فى النهاية التفتَ إليه "الشيخ عتمان"، ونظر مباشرة في عينيه بنظرةٍ نجح في جعلها مَخيفة، وقال:

-أنت تُعاني من لعنة قديمة.. شرّ لا يقدرُ على ردْعِه أحد.

نبض قلبه في عنفٍ، كطبولٍ استوائيةٍ، وهمسَ بصوت مخنوق:

-لست أفهم!.. ألا تُفسر لي كلماتك؟

أطلق "الشيخ عتمان" من كفة كمية كبيرة من البخور في الموقد المتوهج، فانطلق الدخان كثيفًا عظيمًا ومن خلفه هتف "الشيخ عتمان" بصوتٍ قويّ:

-انظر إلى الدخان وستراه.. انظر إليه ولا تخف!

نظر "موسى" بعينيه في الدخان بإمعان.. في البداية لم يرَ شيئًا.. لكن وبعد لحظات كان هناك وجهٌ ما يتشكل بين سُحُب الدخان.. لم يستطع "موسى" أن يرفع عينيه عنه، وفكه السفلي يتدلى في بلاهة.. هل تخدعه عيناه أم أن ما يراه حقيقيًّا..



هل هذا الوجه الطويل النحيف ذو العيون المتوهجة، المشقوقة طوليًا والأنفُ الدقيقُ والقرنان المُلتويان فوق الحاجب موجودٌ حقًا؟

أما أسفل الرأس فقد ظهر جسدٌ ضئيلٌ ذو أطراف طويلة رفيعة.. وكان صاحب الوجه يبتسم في تلك اللحظة له وكأنما يراه!

حَبَسَ "موسى" أنفاسه ذُعرًا، وهو يفكر إن كان ما يراه خدعة ابتدعها "الشيخ عتمان" لإثارة ذُعره.. لكن الإجابة أتتهُ كالصاعقة.. فالكائن المتشكل بثبات بين سحب الدخان المتصاعدة اتسعت ابتسامته في تلك اللحظة، وهزَّ رأسه بالنفي، وكأنما يقرأ أفكاره، ويُخبره أنه ليس وهمًا!

أظلمت الدنيا في عين "موسى" بعدها وشعر بالدوار الشديد.. أغمض عينيه وكأنما يطرد تلك الأوهام عن عقله، ثم فتحهما ليجد ابتسامة "الشيخ عتمان" في وجهه.. وهتف "الشيخ عتمان" في ظفر:

-لقد رأيته.. أليس كذلك؟!

أجاب "موسى" بصوت مرتجف:

-ماذا كان هذا؟.. أخبرني بالله عليك يا "شيخ عتمان"!

-إنه شيطانك الذي يُلاحقك..ألا تعرفه؟

ارتجف جسد "موسى"، وجفَّ حلقه، حتى أنه أجاب بصعوبة



بالغة:

-أعرف ماذا؟.. إنك تُخيفني بكلامك يا "شيخ عتمان".. لماذا قد يُلاحقني هذا الشيطان، ومن يكون؟

أبعَدَ "الشيخ عتمان" وجهه عن "موسى" وتوجه نحو صنم أسود مُخيفٍ لشيطانٍ ما، له قرونٌ مُخيفة، وقد كان معلقًا على الحائط ثم أجاب وهو يشير إليه بإصبعه:

-إنه "أبانوخ بن كمط بن عزازير".. شيطانٌ قديمٌ من أبناء الظلام.. ويزعم البعض أنه حفيد إبليس.

-وما شأن هذا الشيطان بي؟.. ماذا فعلتُ ليتعقبني؟

-وما أدراني؟.. أنت تسألُ ما لا أعرفُ إجابته.

-إذًا ماذا أفعل؟.. وكيف أُواجه شيطانًا كهذا؟

هذه المرة أفلتتْ من فم "الشيخ عتمان" ضحكة ساخرةً طويلة بعثت الرجفة في أوصال "موسى"، ثم قال وهو يهز رأسه بأسفٍ:

-يا لك من مُكابر يا "موسى".. هل تظن أنك بقادرٍ على مُواجهة "أبانوخ"؟.. كم أنت مسكين يا رجل!

وجد "موسى" نفسه يبكي.. غمغم لـ "الشيخ عتمان" برجاءٍ:

-ساعدني أرجوك يا "شيخ عتمان" ولا تتركني لحالي.. أخبرني ماذا أفعل.. الكل هاهنا يتحدث عن كراماتك الكثيرة.. إنني مجرد



رجل ضعيف مسكين.. ساعدني من أجل أبنائى.

- لم أقل إنني لن أساعدك.. إنني فقط أُخبركَ بمن يُحاربك لتعرف عدوك.

دبَّ الأمل في نفسه، فرفع رأسه وهبَّ من مكانه، ملتمسًا يد "الشيخ عتمان" ليقبلها، فتركها الأخير له باسمًا، و"موسى" يهتف:

-هل تعني أنك قادرٌ على إبعاد شرِّه عني وعن عائلتي؟

ثبت "الشيخ عتمان" عينيه في عينيْ "موسى" وقال وهو يضغط على مخارج حروف كلماته:

-لكلِّ شيءٍ ثمن!

-سأدفع كل ما تريده.. لكن أبعِده عني.. أرجوك!

-ألا تسأل ما هو الثمن؟..

فى وقتٍ آخر كان "موسى" ليتوقف عند كلمات كهذه لو قيلت له.. لكنه الآن كان مستسلمًا يائسًا يلتمس أيَّ بصيص من أمل.. كان مستعدًّا لفعل أي شيءٍ، ودفع أيّ ثمنٍ من أجل حماية أسرته، فأجاب على الفور مؤكدًا:

-سأدفع أيّ ثمنٍ تُريده!

ظلت عينا "الشيخ عتمان" الضيقتان ترمُقانه دون أن ترمشا.. وبادله "موسى" نظراتٍ ثابتةٍ كي يؤكد له كلماته، وكي يُثبت له أنه



لا تخاذل في قرارة نفسه.. ابتسم بعدها "الشيخ عتمان" بارتياحٍ، ومدَّ يدًا مخلبيّة نحو "موسى" وقال:

-إذًا أعطِني كفَّك الأيسر!

رَمَقَ "موسى" الكف الممتدة نحوه للحظة، قبل أن يمد كفة اليسرى نحوها.. تناولتها الكفّ الخشنة القوية لـ "الشيخ عتمان"، ثم قرَّبتها من الموْقد، وفردت الإصبع الأصغر وبحركة مفاجئة من اليد الأخرى لـ "الشيخ عتمان" جَرَحَه بخنجر صغير غريب مليءٍ بالطلاسم فانفجرت الدماء.. صرخ "موسى" من الألم، وبحركة تلقائية حاول جذب كفه..

لكن كفّ "الشيخ عتمان" القابضة عليها لم تتركها، واستمرت في القبض عليها للحظات، وقطرات الدماء اللزجة تنساب منها نحو النيران التي توهجت، وقد تحوَّل لونها إلى اللون الأزرق!

بعدها ترك "الشيخ عتمان" كفَّ "موسى"، فجذبها الأخير نحو عينيه ليرى مقدار ما أصابه.. لكن الجرح كان صغيرًا.. هنا بدأ "الشيخ عتمان" في ترديد ترانيمه الغامضة.. ثم قال باسمًا لـ "موسى":

-لقد كتبنا العقد الآن!

لم يفهم "موسى" ما يعنيه.. فرمَقه بحيرةٍ، فاستطرد "الشيخ عتمان":

-إن عقودنا لا تُكتب يا "موسى" بالمِداد.. إن عقودنا تُكتب بالدم.

***

اختفى القمر من السماء في ليلة باردة مظلمة، وتراكمت السحب القاتمة، فتحرك موسى قرب منتصف البيت نحو المقابر.. تدثر بمعطف من الصوف، ولف رقبته بشال صوفي آخر كي يقيه هذا البرد.. لكن جسده ظل يقشعر من البرد.. هل يشعر بالبرد من ليلة الشتاء الباردة هذه، أم أنه الخوف الذي تقشعر من أجله الأبدان؟

إنه الموعد الذي ضربه "الشيخ عتمان" له كي يقوما سويا بعمل "حجاب"، كي يقيه وأسرته شرّ "أبانوخ".. أخبره "الشيخ عتمان" أن المقابر هي المكان الوحيد الذي يُمكنهم فيه السيطرة علي "أبانوخ" مع بعض المساعدة من جانٍ مؤمن.

شعر بالتوتر وهو يتجه بمفرده في قلب المقابر في هذا الظلام والبرد.. في الواقع لم يكن يخشى المقابر؛ إن سكانها الموتى لم يخشاهم وهم أحياء يرتعون على ظهر الأرض ويبطشون ويتشاجرون، أيخشاهم وهم موتى أسفل الثرى، ولا حول لهم أو قوة؟

انتهت البيوت عند أطراف البلدة، وعلى الجانبين امتدت الأراضي الزراعية في طريق طويل ينتهي بالمقابر.. تحرك كلبٌ نحوه من الظلام ونبح مهددًا، فلم يأبه به.. لكن الكلب كان لحوحًا واقترب منه ومازال يصرخ.. في اللحظة التالية نال ركلةً قويةً في بطنه فعوى مذهولاً.. ثم انطلق نحو الظلام ثانية وقد أيقن أن "موسى" ليس الرجل الذي يُمكنه العبثُ معه.



تساءل "موسى" وهو يقترب من المقابر.. هل يأتي "الشيخ عتمان" حقًّا إلى المقابر الليلة.. أم يخلف موعده، فيعود إلى بيته بخُفَّي حنين؟.. كان يخشى أن يتراجع "الشيخ عتمان" عن مساعدته، وعقله لم يكف طوال الأيام الماضية عن التفكير في "أبانوخ" الذي يصبّ على رأسه ورأس عائلته كلّ شرور الدنيا ومصائبها.

وصل إلى بداية المقابر فَلاحَ ضوء مصباح ما في منتصفها، فتقدم ناحيته وهو يعوذ بالله من الخبث والخبائث.. عَوَى ذئبٌ من مكان بعيدٍ عواءً حزينًا، وبعد لحظة جاوبه من مكان آخر عواءًا مُنذرًا.. وفوق الأشجار المنتشرة بين المقابر خفقت بعض أجنحة الطير، فرفع رأسه وضيق عيناه اللتان اعتادتا الظلام، فلمح الأجنحة السوداء والعيون الصغيرة البراقة فتساءل هل تكون هذه غربانًا؟.. واصل سيره نحو الضوء.. ثم دار حول مجموعة من الشواهد، وصعد مكانًا مرتفعًا قبل أن يصل إلى المصباح المُضاء، والذى كان "الشيخ عتمان" يحمله بانتظاره.. كان يقف فوق قبرٍ قديم!

يعلم "موسى" المقابر كلها؛ لأنه لم يُفوِّت جنازةً لأحد من القرية من قبل.. ويعلم أن هناك بعض المقابر القديمة التي لم تعد صالحة للدفن، فتُركت كما هي حفاظًا لحرمة رُفات الموتى المدفونة داخلها.. كان هذا القبر الذي يعتليه "الشيخ عتمان" أحد المقابر القديمة فشعر بالتعجب:

وغمغم "موسى" وهو يتلفت حوله بترقب:



-سامحني لو كنت قد تأخرت؟

إلا أن "الشيخ عتمان" أجابهُ بلهجةٍ عمليةٍ وهو يُشير بيده التي تحمل المصباح الزيتي للمقبرة التي يضع قدمه فوق شاهدها:

-لا عليك.. لنبدأ بلا إبطاء، فمازال أمامنا عملٌ كثير..

لاحظ "موسى" الفأس المُلقاة بجوار القبر فقال متسائلاً:

-ماذا سنفعل؟

-أولاً سنحفر هاهنا لنفتح هذا القبر القديم، وبعد ذلك سندخله ونُكمل الطقوس داخله!

-هل تقصد أننا سوف ندخل القبر؟

هنا صاح "الشيخ عتمان" فيه محذرا:

-وهل تخشى أن تفعل هذا؟.. إن كنت كذلك، فدعنا نعود لبيوتنا خيرٌ من هذا الزمهرير الذي نقف فيه.

تناول "موسى" الفأس على الفور، وهو يبدأ الحفر وقال:

-سوف أحفر يا "شيخ عتمان" فلا تغضب.. سأفعل كل ما تأمرني به!

راقبه "الشيخ عتمان" وهو يحفر بالفأس، ويُزيح الكثير من التراب الناعم المتراكم حول باب القبر.. مضى الوقت بطيئًا لا يقطعه إلا ذلك النعيق المزعج المتقطع لعددٍ من الغربان التي انتقلت إلى



الشجرة التي تُجاورهم.. تمنى لو يلقمها أحد الأحجار لتبتعد؛ إلا انه لم يرغب في أن يقطع عمله كي لا يحتج "الشيخ عتمان" واستمر بالحفر.. ظهر الباب الخشبي القديم فأزاح التراب الباقي من حوله ثم جذبه.. تحرك الباب ببطء إلا أنه فتح في النهاية.. توقف لاهثًا أمام باب القبر المفتوح الذي انطلقت منه رائحة عفنة لجثثٍ تحللت منذ أزمنة بعيدة، ولم تعرف طريق الهواء الطازج منذ عقود.

هنا تحرك "الشيخ عتمان" واستند بذراعيه على أحجار القبر، ثم دخله واختفى في ظلامه قبل أن يصيح مناديًا "موسى" من الداخل..

-أحضِر المصباح والحقيبة واهْبط.

انتبَه للحقيبة الجلدية فالتقطها، وأحسّ بثقلها، وحملَ المصباح الزيتي ودفعهم بيده لداخل القبر قبل أن يهبط.. كان القبر واسعًا بصورة لم يتخيلْها وَقد انتشرت أكوامٌ من التراب في بعض جوانبه ومعها تناثرت بعض العظام النَّخرة.

لم يتركه "الشيخ عتمان" لتأملاته؛ بل أشار إليه لِيُساعده.. حيث حمل المصباح منه، بينما افترش "الشيخ عتمان" الأرضية التُّرابية وفتح حقيبته وأخرج منها شموعًا وحقيبة ورقية مليئة بمسحوق أبيض يبدو كالدقيق.. فتح الكيس ونثر المسحوق حوله راسمًا دائرة كبيرة، وأتبعها بنجمة خماسية داخلها لكنها أصغر.. ثم التقط الشموع السوداء فثبتها في أركان النجمة الخمس وأشعلها..



اختلج قلب "موسى" قلقًا مما يراه، فتمتم متوترًا:

-ما الذي تفعله يا "شيخ عتمان"؟

جاوبه الشيخ بصيحة تحذيرية دون أن يأبه بالرد قائلاً:

-اصمت ولا تتكلم وإلا انتهينا!

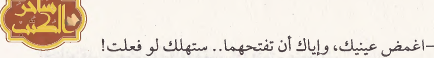
لاذَ "موسى" بالصمت على الفور؛ حتى أنه كاد أن يكتم أنفاسه نفسها لو استطاع.. تراقص لهب الشموع غريبًا مُخيفًا.. وانعكس على وجه "الشيخ عتمان" كخيالٍ شيطاني.. خرج "الشيخ عتمان" من الدائرة بعدها ثم اتجه إلى ركنٍ تراكمت العظام فيه فنَبَشَه بكفيه حتى عثر على جمجمةٍ قديمةٍ متآكلة.. ابتسم في رضا وهو يرمُقها، ثم حملها عائدًا إلى دائرته فتوسطها ثانية وثبَّت الجمجمة في منتصفها، قبل أن يُخرج مبخرةً من حقيبته، ويصبّ بعض زيتها فوق الجمجمة، ثم أوقد المبخرة الزيتية فانطلق دخانٌ كثيفٌ مصحوبًا برائحة بخورٍ قوية..

وفي اللحظة التالية أشار إلى "موسى" قائلاً:

-تعال هنا يا "موسى".. لا تخش شيئًا، وتقدّم بقدمك اليُسرى.

تقدم نحوه "موسى" بخطواتٍ متعثرة، وجلس بجواره داخل الدائرة.. طالبه "الشيخ عتمان" بان يحمل الجمجمة فحملها، وهو يشعر ببعض الاختناق من الدخان الكثيف الذي ملأ القبر الآن..

وقال له "الشيخ عتمان" بصوتٍ غليظ:



-اغمض عينيك، وإياك أن تفتحهما.. ستهلك لو فعلت!

أغمض موسى عيناه، وتيقظت حواسة الأخرى.. وخارج القبر تحوَّل النعيقُ المتقطع للغربان إلى صراخ مستمرٍّ بلا توقف، حجبت جدران القبر الكثير من شدته.. تصاعَدت تراتيل غريبة من فم "الشيخ عتمان" دون أن يفهم "موسى" منها شيئًا.. ثم بدأت أصوات أخرى غامضة في التردد بين جدران القبر..

ارتفعت الحرارة فلم يعد "موسى" يشعر بالبرد.. واهتزت الأرض من تحته فشعر بالفزع وهو لا يدري ما يفعله.. إلا أنه تذكر تحذير "الشيخ عتمان" فلم يفتح عينيه واكتفى قلبه بالارتجاف هلعًا.. امتزج النعيق بالتراتيل الغامضة مع صرخات مخيفة راحت تتردد في كل مكان حوله، مع الارتجاجات التي تهز الأرض الآن في مزيج يُجمد الدماء بالعروق؛ فشعر "موسى" أنه ما كان له أن يأتي إلى هنا..

تعالت ضحكةً صاخبةً؛ علِم موسى أن "الشيخ عتمان" ليس من أطلقها، فلم يجرؤ على فتح عينيه ليرى من فعلها.. لكنه لم يقدر على المقاومة حين شعر بالجمجمة في يده تشتعل فجأة.. فتح عيناه ليجد محجريها مشتعلان يرمقانه بنظرة نارية..

لم يكن "الشيخ عتمان" بجواره كما كان قبل أن يُغلق عينيه.. كان وحيدًا بالقبر، ومازال صوت "الشيخ عتمان" يتردد من حوله من



الفراغ!

وبرعب أدرك حين نظر لباب القبر أنه كان مغلقًا..أراد أن يندفع نحو البّاب؛ لكن أيدٍ التصقت بقدميه وجذبته نحو الأرض منعته من هذا.. ثم بدأ الصراخ اليائس دون أمل في النجدة.. قاوم غيبوبةً عنيفةً تزحف نحو وعيه، وأشباحًا غامضةً تتحرك من الجانب المظلم في القبر نحوه.. ظل يصرخ حتى غمرته تلك الأشباح تمامًا فكممت..

وكان آخر ما رآه ماردًا ضخمًا يشير إلى صدره قائلاً:

-مرحبًا بقربان "أبانوخ"!

في الخارج تحرك الشيخ عتمان حاملاً مصباحه مُبتعدًا عن القبر.. صمتت الغربان وراحت ترقبه في رضا وعيونها مشتعلة كالجمرات.. كان يشعر بالسعادة وقد قدم لسيدة قربانًا آخر.. تُرى ما هي القوة التي سوف يمنحه إياها هذه المرة؟

يكاد أن يحترق شوقًا كي يعرف.. لكن عليه أن ينتظر بزوغ القمر التالي كي يعرف!

صدر للكاتب

١- الجثة الخامسة "رواية"

٢- عهود الدم "رواية"

٣- الشيخ الأسود "رواية"

٤- نجع الموتى "رواية"

٥- الأعمال الكاملة ل "لافكرافت" "ترجمة"

٦- خارج ظل الرجل "ترجمة"





قُربَان بَشري

تعالى من الشبح صوتٌ مخيفٌ عميق يقول:

-لقد صدقتنا أيها البشريّ.. لقد أعدتنا كما وعدت: فلك منا العطايا التي لم تحلم بها.

وازدادت ابتسامة الشيخ "هلال" وهو يُشير إلى الثلاثة قائلاً:

-وهاهم قرابينُك يا سيدي!

وعاد الشبح ليقول برضا:

- وقد قبلنا قرابينك أيها البشري.

وفجأةً امتلأ الفراغ بعشرات الأشباح المُخيفة.. التفّوا جميعًا حول الثلاثة.. وكان الألمُ عنيفًا كما لم يتخيل الثلاثة، ولكن الألم كان هذه المرة بلا صراخ.. فألسنتهم كانت أول شيءٍ حصلت عليه تلك الكائنات الشيطانية.

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

9 789777 791946

